جامعة وهران

كلية العلوم الاجتماعية

معهد علم الاجتماع

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في المعرفة والمجتمع تحت عنوان

الرحلة في طلب العلم

الرحلة كإرث عباسي وواقعها بين عصر النهضة واليوم

من انجاز الطالب : بن جبار بلعيد **وتحت إشراف الأستاذ :غريد جمال**

لجنة المناقشة

السنة الجامعية 2009 / 2010

فهرس المحتويات

مقدمة عامة .....ص 4

الفصل الأول: تاريخ الرحلة

1- مقدمة ص9

2- تعريف الرحلة ص10

3- الرحلات في التاريخ .....ص 12

4- الرحلة عند العرب .....ص 15

5- الرحلة في الإسلام .....ص 16

6- ثقافة الرحلة .....ص 18

7- أنواع الرحلات وأشهرها .....ص 19

8- نوادر الرحلات .....ص 20

الفصل الثاني: حركية الترحال في العصر العباسي

1- مقدمة .....ص 24

2- الظروف السياسية .....ص 25

- الحضارة العباسية هي فضاء .....ص 25

- الإصلاح السياسي .....ص 27

- خلفاء بني العباس وإرادة المعرفة .....ص 29

3- المظهر الاجتماعي .....ص 32

- الحضارات هي مجتمعات وذهنيات .....ص 32

- الرحلة والمحيط الاجتماعي .....ص 33

- الثورة العباسية وديمغرافية بغداد .....ص 35

4- المظهر الاقتصادي .....ص 36

- الأهمية الاقتصادية للفتوح العربية .....ص 36

- الطرق والمواصلات والوقف .....ص 37

- نفقات الرحلة .....ص 40

الفصل الثالث: نماذج من الرحلات

1- مقدمة .....ص 43
2- المظهر الثقافي .....ص 44
- براديغم المشافهة وبداية التدوين .....ص 44
- حركة الترجمة .....ص 49
- تفاعل الأفكار والحضارات .....ص 50
3- أشهر العلوم المطلوبة .....ص 52
4- فوائد وآداب الرحلة والعوامل المساعدة عليها .....ص 55
5- العلماء المسلمين والرحلة .....ص 59

الفصل الرابع: عصر النهضة والبعثات العلمية

1- مقدمة .....ص 67
2- محاولة الرجوع ومحاكاة التراث .....ص 68
3- فتح باب الاجتهاد .....ص 69
4- التراث وإشكالية النهضة .....ص 70
5- إصلاحات محمد علي في مصر والبعثات العلمية الكبرى .....ص 71
6- طلبة وعلوم .....ص 82
خاتمة عامة .....ص 88

مقدمة عامة

مقدمة عامة

أعطى المجتمع الإسلامي، بعد نشأته دفعة لازدهار العلوم بنوعيها النقلية من فقه وتفسير وحديث، والعقلية من فلسفة ومنطق ورياضيات وفلك وطب، وما لا يمكن إنكاره هو وجود ارتباط قوي ووثيق بين العلم العربي وحاجات المدينة الإسلامية، فهو لم يكن مجموع إنتاجات نظرية على هامش الحياة العملية، بل كان العلم وثيق الصلة بالواقع الثقافي، بحيث أصبح من الملح على العلم أن يعد نفسه، جزءا لا يتجزأ من الثقافة التي تطور في أحضانها، ونحن نخص بالذكر هنا الثقافة الإسلامية التي من مصادرها الأساسية القرآن الكريم والسنة النبوية التي جاءت مفسرة له، والفكر والتراث الإسلامي من فقه وعادات وأعراف وأفكار ومفاهيم وسلوكات وقيم واتجاهات، المستمدة من استجابة المسلمين لتعاليم دينهم الذي يأمر بطلب العلم والعمل به وتعليمه والدعوة إليه، وهذا الموروث الثقافي يرتبط بالمحيط الاجتماعي والنظرة إلى المستقبل، بل والنظرة إلى العالم، إلى الكون، والإنسان كما تحددها العقيدة الإسلامية، وعلى هذا الأساس كان جو المجتمع العربي الإسلامي مشحون بهذه الثقافة التي ساعدته على القيام بدوره الحضاري المنوط به في القرون الوسطى.

وعلى غرار الجو الثقافي، مهدت الأسباب الاجتماعية هي الأخرى لرسوخ فكرة العلم وطلبه والسعي في تحصيله، باعتبار أن حركة العلم وطلبه كانت بمثابة حركة اجتماعية مست كل فئات المجتمع العباسي بحيث كانت في أعلى سلم أولويات كل طبقات المجتمع على اختلاف درجاتها، وتوفر أيضا جو مديني حضاري، وهذا ما فعله الخليفة العباسي الثاني المنصور عندما أنشأ مدينة بغداد، لتكون كعبة العلم والعلماء، وحاضرة الدولة العباسية وعاصمتها السياسية والعلمية والاقتصادية، حتى تعطي صورة للحضارة الإسلامية وسط عالم القرون الوسطى.

وكانت إرادة خلفاء بني العباس جلية في دعم العلم والعلماء، واستقدامهم إلى قصورهم لمجالستهم وتحديثهم وعقد المناظرات بين أيديهم، كما كان يفعل المأمون يوم كل ثلاثاء من كل أسبوع، وتكليفهم بمناصب الوزارة والقضاء حرصا على بقاءهم بقربهم كما فعل المنصور مع أبي حنيفة، وهارون الرشيد مع الإمام مالك، والمأمون مع أبي دؤاد، وهذا ما يفسر وجود إرادة سياسية أتبعها بذل وعطاء من أجل نشر العلم وتدوينه وحفظه.

فهذا المحيط الثقافي والاجتماعي والسياسي الآنف الذكر، مهد لبروز ظاهرة نحن بصدد الكشف عنها، وهي ظاهرة الرحلة في طلب العلم، التي كانت بمثابة تمثل واستحضار لحياة العرب الأولى، التي كانت قائمة على الترحال، ولكن جاء الدين الإسلامي ودعمها بنصوص وشواهد ورتب عليها أجر وثواب، دنيوي بعلو الشأن والرفعة بين أفراد المجتمع الذي يعيشون فيه، وفي الآخرة بالفوز بالنعيم المقيم، كما يقول تعالى"يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات"، ويقول أيضا"قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون".

لهذا حظيت الرحلة في أحضان الحضارة العربية الإسلامية في القرون الأولى لانتشار الإسلام بمكانة مرموقة، كانت تعدل حتى الجهاد في سبيل الله، لذا كانت مقصد كل طالب علم، وكانت معيار تقدير العالم وطالب العلم، إذن فهذه الخصوصية التي انفرد بها المجتمع العربي الإسلامي وكذا ثقافته وفكره تؤدي بنا إلى التساؤل فيما إذا:

كانت الرحلة في طلب العلم هي بمثابة استجابة، وتعبير عن واقع اجتماعي لمجتمع حضاري كان في طور التأسيس؟ وما هي درجة حضور هذا الموروث القديم في الفكر العربي الإسلامي فيما بعد؟

كما سبق وأشرنا أن الرحلة هي تعبير عن واقع المدينة الإسلامية، وتضافر واكتمال شروط اجتماعية وثقافية وسياسية.

مع العلم أن هذه الثقافة كانت قائمة على المشافهة وليس على التدوين، الذي جاء فيما بعد، وهذا ما اقتضى ضرورة الانتقال بين الأقطار ومشافهة العلماء، بالإضافة إلى وجود وحدة سياسية وسلطة مركزية سهلت الترحال.

نرى حضور هذا الموروث العربي الإسلامي، الذي هو الرحلة، لكن أكثر تنظيم وبصفة رسمية، برعاية الدولة في شكل بعثات علمية، كالتي قام بها الحاكم المصري محمد علي باشا بإرساله لبعثات إلى فرنسا وانجلترا، أي العالم المتقدم في بدايات القرن التاسع عشر، وهذا ينم على وجود تقسيم جغرافي للمعرفة، بمعنى مجتمعات مالكة للمعرفة، ومتحكمة في إنتاجها، تقع في الضفة الأخرى والمقابلة، ومحصورة في النطاق الأورو أمريكي، وأخرى فاقدة لها، وبالتالي تبحث عنها وترسل أولادها لاستيعابها والرجوع بها لخدمة الوطن.

وبودي الآن بعد عرض هذا الطرح أن أذكر اللقاء الأول بيني وبين موضوعي أو بالأحرى صديقي، فقد كان هذا اللقاء داخل قاعة التدريس الخاصة بالماجستير، وبالضبط في مقياس المعرفة والتراث الذي كان يقدمه الأستاذ غريد جمال، وفي معرض توزيعه للمواضيع المختارة لتنشيط هذا الملتقى خص الحضارة العربية الإسلامية ببعض منها، وكان من بينها موضوع الرحلة في طلب العلم، وأنا في تلك الفترة كنت في رحلة البحث عن موضوع لإنجاز مذكرة التخرج لذا كان عندي بما يسمى الحس العائم أي ذهني وأذني كان يلتقط أي شيء له علاقة بالتراث العربي الإسلامي، ولما قدم الأستاذ هذا العنوان مباشرة رفعت يدي مستأذنا أن أنجز هذا الموضوع كخطوة أولى، ثم بعد المعالجة و الأخذ في معرض موضوع الرحلة في طلب العلم وجدت تلك اللذة والرغبة التي أمدتني بالإرادة لإتمام هذا الموضوع واتخاذه زميلا لمدة تفوق السنة والنصف، وقد ركزت في دراستي على العصر العباسي لأمور:

لإجماع المؤرخين، خاصة مؤرخي العلم بأنه أزهى العصور التي تمكن فيها المجتمع العربي الإسلامي من بلوغ ذروة التألق الحضاري.

ويعتبر هذا العصر أيضا أساس ومبدأ تكوين الثقافة العربية الإسلامية من خلال بداية التصنيف والتدوين.

وفي الأخير كنت أقصد وراء اختياري لموضوع الرحلة في طلب العلم واختيار العصر العباسي، أن أبرز دور الإرادة السياسية في خلق الجو الحضاري الذي يرتكز على المعرفة ويهيئ الشروط المناسبة لنموها.

وفي معرض مناقشة أفكار هذه الدراسة حاولت إيجاد حقل ملموس لقياس درجة تواجد هذا الموروث الذي هو الرحلة في طلب العلم في مخيال وممارسات الفاعلين اليوم وهذه المغامرة إن صح التعبير لم تكن بالشيء الهين، فأنا أردت توسيع النطاق المكاني للعينة وذلك بغية خلق تنوع جغرافي لإعطاء صورة مصغرة حول هذا التصور، لكن هذا التفرق صعب من مهمة الانتقال لإجراء المقابلات، وأحيانا الوصول إلى هذه المدن وعدم الحصول على المبحوثين، يعني أن معظم المبحوثين كنت أجدهم في انشغال بالدراسة خارج الوطن، هذا ما جعلني أتحين فرص العطل خاصة الصيفية للقائهم، لذا لم تكن مقابلاتي منظمة في وقت واحد.

والعائق الدائم عندنا نحن الطلبة هو عدم التمكن من التسيير الجيد للوقت بالصورة التي تخدم الموضوع، ما يظهر نقائص وتجاوز لبعض الأفكار وعدم التوسع فيها ومناقشتها وإعطاءها حقها من الدراسة.

لذا سأتطرق لعرض ملخص عام أبين فيه نوعا ما مسار هذا العمل، فقد احتوت الدراسة أربعة فصول، ففي الفصل الأول سيجد القارئ الكريم عرض تاريخي للظاهرة التي أنا بصدد دراستها (الرحلة في طلب العلم) اتبعت فيه منهج أنتربولوجي معروف لدى المدارس الأنتروبولوجية الأولى (النشوئية والتطورية)، فتلمست هذه الظاهرة أي الترحال لدى الفراعنة وحضارات الشرق القديم، قدوما إلى اليونان فالرومان، وصولا إلى حضارة العرب، ومدى ترسخ الظاهرة في الثقافة العربية الإسلامية.

و أما الفصل الثاني والثالث فقد حاولت أن أبرز فيه أو بالأحرى الإحاطة بالحياة العباسية، خاصة في القرنين التاسع والعاشر الميلادي، والثالث والرابع الهجري، من الجانب السياسي والاجتماعي والاقتصادي وحتى الثقافي، لإعطاء صورة كاملة حول نمو هذه الظاهرة في هذا المجتمع بالضبط، وخصصت الفصل الرابع لدراسة الظاهرة ومدى تواجدها في عصر النهضة، عندما أصبحت أكثر تنظيم وأخذت الدولة على عاتقها تأطير هذه الظاهرة من خلال البعثات العلمية المنظمة إلى الدول الأوروبية الكبرى التي بلغت ذروة النمو والتطور العلمي والحضاري، مبرزا في الأخير نتائج البحث الميداني وتحليل لمضمون المقابلات، خاتما الدراسة بالنتائج المحصلة والمستقاة من خلال الدراسة وفاتحا أفاقا أخرى لمن أراد الاستزادة ومواصلة البحث لأني مقتنع أني لم أتطرق لكل شيء بل طرقت زاوية واحدة من عدة زوايا التي يحتويها هذا الموضوع.

الفصل الأول

تاريخ الرحلة

مقدمة

ارتأيت أن أبدأ بوضع صورة شاملة حول الظاهرة التي أنا بصدد دراستها "الرحلة في طلب العلم"، لذا ظهر لي أن أبدأ بوضع تعريف يخضع لقواعد لغتنا العربية، وتصوراتنا الثقافية للرحلة، ومن ثم الإحاطة بتاريخ هذه الظاهرة والوجه الذي ظهرت به عند مختلف المجتمعات والحضارات من فراعنة إلى فينيقيين، إلى إغريق ورومان بذكر أشهر مؤرخيهم ورحلاتهم وهذا تمهيدا للكشف عن الظاهرة عند العرب باعتبار مناخهم وتراثهم وتاريخهم وشهرتهم كبدو رحل.

لذا قمت بتقسيم تاريخ العرب إلى ما قبل الإسلام وبعده وذلك لإحداث مقارنة صغيرة يتبين من خلالها كيف أن الرحلة أصبح لها أصول ثقافية في الحضارة العربية، وبهذه المناسبة قمت بذكر أشهر الرحلات العربية خاصة رحلات المؤرخين والجغرافيين التي كانت بمثابة رحلة في طلب العلم والتي هي نفسها أسست للعلم وهو علم الجغرافيا والتاريخ عند العرب.

فهذا الفصل التقديمي إن صح التعبير هو الذي على أساسه وعلى منواله سأواصل التطرق "للرحلة في طلب العلم"، وسأعتبر هذه التعاريف والمسار التاريخي بمثابة مرجع أرتكز عليه حتى لا أحيد عن الهدف الذي سطرته عند بداية العمل على هذا الموضوع، وهو الكشف عن الأصول الثقافية والتاريخية "للرحلة في طلب العلم" في المجتمع العربي الإسلامي، وكيفية الاستفادة من هذا التراث إن صح القول. وكيف بنى العرب الأوائل ملكهم وحضارتهم؟ كما قيل: بالعلم والمال أسس الناس ملكهم، فلم يِؤسس ملك من جهل وإقلال.

قال الله تعالى على لسان موسى عليه السلام:"هل اتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا". (سورة الكهف 66).

تعريف الرحلة

سنحاول تعريف الرحلة والإحاطة بجوانبها اللغوية والاصطلاحية حتى نضع أنفسنا تلقاء صورة واضحة، تسمح لنا برؤية جيدة نتمكن من خلالها صبر غور هذا الموضوع، وكما هو معروف أن اللغة العربية ثرية من حيث المصطلحات والمعاني، ونحن أيضا سنقوم برحلة في أشهر المعاجم العربية وكيف تناولت هذه الكلمة "الرحلة" وسنبدأ بأشهرها.

يقول ابن منظور

الرحلة: هو منسوب إلى الظهر ... جعلها ظهرية، أي خلف ظهره كقوله تعالى:"فنبذوه وراء ظهورهم" بخلاف واجه(1).

نرى أن الكلمة شرحت بالاعتماد على النص القرآني الذي يعتبر أبلغ نص ومرجع لغوي.

ويقول صاحب التاج

الإمام الرحلة: أي العالم به المجيد له، مثال ذلك: عن الإمام **الرحلة** الحافظ شهاب الدين أحمد بن محمد بن حجر العسقلاني. وأيضا: إمام جليل واسع **الرحلة** والحفظ والرواية والدراية.

ورجل رحول ورحال ورحالة، كثير الرحلة، والرحلة بالضم، القوة والجودة ورحلت له نفسي: صبرت على أذاه(2)، وكل هذه المعاني يحصل مقصودها بالرحلة في طلب العلم.

ويقول الأزهري

الرحلة: الارتحال، والرحلة بالضم الوجه الذي تريده(3).

ويقول في المصباح المنير

الرحلة بالكسر اسم من الارتحال، وبالضم الشيء الذي يرتحل إليه(4).

فالأزهري وصاحب المصباح المنير يعطي التحول الحاصل عند اختلاف الحركة من الكسر إلى الضم لكن تبقي في نفس المجال وهو الرحلة.

---

(1) ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، الطبعة الأولى، الجزء الرابع، ص 520.

(2) محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، **تاج العروس من جواهر القاموس**، جزء الأول،ص 23-2961-7101.

(3) الأزهري، **تهذيب اللغة**، الجزء الثاني، ص 94-95.

(4) قرص مكتبة الشاملة، **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، الجزء الثالث، ص 373.

ويقول ابن سيده

رجل رحال: عالم بذلك مجيد

والترحل والارتحال: الانتقال، وهو الرحلة ، حكى الليحائي إنه لذو رحلة إلى الملوك ورحلة.

والرحيل: اسم ارتحال القوم للمسير(1).

يذكر ابن سيده اسم الفاعل والمصدر الذي يؤدي كل واحد منها معنى مختلف عن الآخر، فعالم مجيد تعني عندما يرحل طالب ما بغية فن من الفنون فيجيده ويصبح عالما به جزاء المشقة التي لقيها في طلبه.

ويقول صاحب المختار

الرحلة بالكسر الارتحال يقال دنت رحلتنا

الراحلة: الناقة التي تصلح لأن ترحل.

والمرحلة واحدة المراحل(2).

والجديد عند صاحب المختار هو ذكر الوسيلة التي يرتحل بها وهي مثلا الناقة في الأمس والوسائل الحديثة اليوم (السيارة، القطار، الطائرة، الباخرة).

ويقول الجوهري

الرحلة بالضم الوجه الذي نريده، يقال أنتم رحلتي أي الذين أرتحل إليهم

و**الرحلة** بالكسر هو الارتحال، و**الراحلة** المركب من الإبل(3).

وقال الرحلة: إلى موضع كذا وكذا أي الارتحال(4).

وفي أساس البلاغة

ر ح ل: رجل عن البلد، ظعن عنه، ومكة رحلتي: وجهي (وجهتي).

وفلان عالم **رحلة:** يرتحل إليه من الآفاق(5).

---

(1) ابن سيده، **المحكم والمحيط الأعظم**، ص 19-20.

(2) زين الدين الرازي، **مختار الصحاح**، ص 116.

(3) الجوهري، **الصحاح في اللغة**، ص 247.

(4) ابن دريد، **جمهرة اللغة**، ص 264.

(5) قرص المكتبة الشاملة، **أساس البلاغة**، الجزء الأول، ص 162.

ويقول الفيروز آبادي

الرحلة بالكسر هي الارتحال وبالضم هي الوجه الذي تقصده(1).

أما هذه المعاجم فدرست الوجهين المعتادين للرحلة وهما السفر والوجهة المقصودة.

لذا نرى أن هذه المعاجم اللغوية وما حملته من تعاريف لمصطلح الرحلة، قد انفرد كل جزء منها بجانب معين لكن اجتماعها يعطينا صورة واضحة عن كلمة الرحلة وما تحمله من معاني في اللغة العربية، من مشقة السفر لبلوغ الغاية وحصول ذلك من الترحال.

اصطلاحا

الانتقال من مكان إلى مكان أو قرية إلى قرية أو مدينة إلى مدينة أو بلد إلى بلد و التعرف على عاداتهم وتقاليدهم وشؤونهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فهي السير إلى البلد الذي يوجد فيه فحول العلماء للأخذ من علمهم وأدبهم وسمتهم.

فالرحلة لابد منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال(2).

الرحلات في التاريخ

ميل الإنسان إلى الاستطلاع، ورغبته في السيطرة على العالم دفعاه منذ أقدم الأزمنة إلى التنقل والرحلات، فاندفع من إقليمه إلى الأقاليم المجاورة يكتشف آفاقها، ويرتاد مجاهلها، وكانت له في كل عصر من العصور سفرات ومغامرات، فالتاريخ الإنساني يبرز أن المصريين كانت لهم منذ حوالي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد رحلات متعددة، في عهد الأسرة السادسة بالبر والبحر إلى بلاد بنت (ساحل الصومال) وأن الملكة "حتشبسوت". جهزت حملة إلى البلاد عام (1492ق.م)، سيرت فيها خمس سفن كبيرة في البحر الأحمر(3).

وبعد المصريين جاء الشعب الفينيقي، وكان هو الذي أصبح قائما على أمر الملاحة في البحار، فقام هذا الشعب برحلاته البحرية التي استحوذ فيها على مرافئ بحر الروم، وشواطئ أوروبا الغربية، والمحيط الأطلسي، واكتشفت بعض سواحل إفريقيا الغربية، وقد سجلت هذه الرحلات في مصنفين اثنين هما رحلة "حنون القرطاجي" حول القارة الإفريقية، ورحلة

---

(1) الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، الجزء الثالث، ص 100.

(2) عبد الرحمن بن خلدون، **المقدمة**، دار الفجر للتراث، القاهرة2004، ص 693.

(3) أحمد سعدون، **أدب الرحلات**، دار الشرق الجديد، بيروت، الطبعة الأولى 1961، ص 7-8.

"عملقون" إلى سواحل أوروبا الغربية، وخصوصا جزر بريطانيا العظمى التي كان يذهب إليها الفينيقيون لجلب معدن القصدير(1).

خلف الإغريق الفينيقيين، فقاموا برحلاتهم في أقطار الأرض المعروفة، وأنشأوا مستعمرات لهم في سواحل آسيا الصغرى وإيطاليا. وقد تركوا لنا معلومات ومعارف جغرافية واسعة تطلعنا على وصف الأقاليم والبلدان التي زاروها، وقد اشتهر منهم بالرحلات "هوميروس" الذي ركب البحر وطالت فيه رحلته، ولما عاد إلى بلاده نظم الإلياذة والأوديسة، وخص النشيد الثاني من إلياذته بوصف البلدان والجبال والوهاد والبحار والأنهار،ورحلته إلى طروادة في القرن 10ق.م. وأكبر رحالة عرفه الإغريق "هيرودوت" الذي بنى علمه على المشاهدة والعيان فقام برحلة طويلة إلى مصر وبابل وآشور وبلاد الفرس والفينيقيين والطليان وسواحل البحر الأسود، مكتشفا خلالها طرقا كانت قبله مجهولة، ومدونا معلوماته هذه في تاريخه الكبير، وخلفه طائفة من مؤرخي الإغريق حفلت كتبهم بأخبار الأمم المجاورة، ولعل أهمهم "بلوتارك" الذي عني بتاريخ اليونان والرومان، ومنه استمد شكسبير كثيرا من مسرحياته(2).

و"سيلاكس" البحار الذي ألف رحلته في القرن الرابع قبل الميلاد واصفا سواحل إفريقيا والمغرب وسواحل مراكش على المحيط الأطلنطي، واشتهر "أرتيميذس الرهاوي" (القرن الأول قبل الميلاد) الذي زار إيطاليا وأقام قنصلا بروما وزار إسبانيا وسواحل الأطلسي ثم شمال إفريقيا ومصر، وألف رحلة مطولة جعلها شبه موسوعة جغرافية حشر إليها ما سبقه به غيره من العلماء، وما اكتسبه هو من خلال ترحاله وتطوافه، وبرز كذلك اثنان آخران هما: "يودوكس" و"هبالوس" اللذان كانا يقومان برحلات ساحلية إلى الهند، حيث أن "هبالوس" هو الذي اكتشف كيفية الإفادة من الرياح الموسمية في رحلة الذهاب إلى الهند، ولن ننسى هنا أن نشير إلى فتوحات الاسكندر التي رافقه فيها علماء وجغرافيون رحالة سجلوا مشاهداتهم حتى غدت هذه السجلات جغرافيا لبلاد آسيا(3).

---

(1) نفس المرجع، ص 08.

(2) سلسلة أدبية، **الرحلات**، دار المعارف، القاهرة1956، ص 08.

(3) **أدب الرحلات**، ص 09.

ثم خلف الرومان الإغريق وأصبحوا سادة الدنيا بعدهم، فغذوا السير في الآفاق يضربون في أرجاء الإمبراطورية الواسعة، حتى وصلوا إلى جزر الكناري، وإفريقيا وآسيا، وبلغوا الهند والشرق الأقصى، من أنباء هذه السفرات والرحلات جملة من الروايات التي قصها مؤرخوهم في كتبهم، وأشهر هذه الكتب "التعليقات" "ليوليوس قيصر"، و"جرمانيا" "لتاسيت"، و"العشريات" "لطيطش ليوش". "فيوليوس قيصر" قص حروبه في الغال، و"تاسيت" قص أحوال التيوتون الأوائل، ونلتقي في القرن الثاني للميلاد "ببطليموس الاسكندري"، وهو إغريقي الأصل وقد ترك كتابين في الجغرافية والفلك، ونراه يدون وصفا مفصلا للبلدان والأماكن في عصره ذاكرا أطوالها وعروضها، ومبينا بالرسم مواقعها(1).

ثم جاء دور العرب وفتحوا الأرض من الهند والصين إلى المحيط الأطلسي وجبال البرانس، ومن التركستان وجبال القوقاز إلى السودان، وأصبح كل ذلك عالما موحدا مشتركا في الدين والثقافة، ووصف مؤرخوهم مدن هذا العالم وبلدانه، كما وصفوا سكانه، وكان ذلك إرهاصا لما قام به علماؤهم وأدباؤهم من رحلات في المستقبل، اشترك فيها التجار وغير التجار(2).

وكان من أهم الأسباب في تدوين هذه الرحلات حاجة الدولة إلى معرفة الطرق الكبرى التي تصل أقاليمها، ومن ثم ألفت كتب كثيرة في وصف المسالك والممالك. وهذه الحاجة السياسية اقترنت بها حاجة دينية، إذ كان الحج إلى مكة فريضة، فكان كثير من هؤلاء يصف طريقهم إلى الأماكن المقدسة في كتب أو في رحلات مختلفة(3).

هذا وقد ظل العرب هم الحائزين قصب السبق في ميدان الرحلات والاكتشافات الحديثة حتى القرن الخامس عشر الميلادي، حين انطلقت أوروبا في حركات الاستكشاف الحديثة، فاكتشف "هنري" المعروف بالملاح أقساما مجهولة من الشاطئ الإفريقي (1441م)، ووصل "بارتولوميو دياز" (1486م) إلى رأس الأعاصير في الطرف الجنوبي من القارة الإفريقية، ثم اقتحم "فاسكوداغاما" بحر الهند (1497م)، وبلغ "كولومبس" أمريكا (1492م)، واستطاع "ماجلان" أن يطوف لأول مرة حول الكرة الأرضية (1519م) فيثبت بالدليل العلمي أن

---

(1) **الرحلات**، ص 08.

(2) نفس المرجع، ص 08.

(3) نفس المرجع، ص 09.

الأرض كروية.

وكان من نتائج هذه الكشوف أن نمت روح المغامرة في أوروبا كلها، فاقتحم الغربيون غمار المحيطات واكتشفوا أستراليا وجزر المحيط الهادي، ولم يبق موضع على الأرض لم يرحلوا إليه، أو يرسلوا البعثات لكشف أسراره. وهاهم يفكرون اليوم في رحلات إلى المريخ والعالم الخارجي(1).

وهذا هو تاريخ الرحلات، وحسبنا هنا أن نعرض لتفصيل تاريخها عند العرب.

الرحلة عند العرب

الرحلات في العصر الجاهلي

رحلات العرب في العصر الجاهلي رحلات في سبيل التجارة، ومن أجل طلب العلم، كان يقوم بها نفر ممن كانوا يسكنون أطراف الجزيرة وحواضرها، وبخاصة في اليمن. ففي اليمن كان العرب يتجرون منذ أقدم الأزمنة، مع مدن الساحل البعيد (إيريتيريا والصومال)، ويبعثون بسفنهم إليها وكانوا يركبون البحر على طول سواحل إفريقيا الشرقية، يمدون هذه البلاد بالذهب والنحاس والأحجار الكريمة، فضلا عن السلع الأخرى التي كانت تستعمل في صناعة العطور والمراهم وبخور المعابد. وإن كل شيء يقع تحت اسم النقل من آسيا وأوروبا في خلال القرن الثالث قبل الميلاد، يقول المؤرخ اليوناني "أجاثار خيديس"، إن السبئيين وأهل جرها هم الذين كانوا مسؤولين عنه(2).

وأما في الحجاز ومكة وسائر مدن الشمال فقد ساح المكيون في الولايات البيزنطية الشرقية، بل زاروا عاصمتها ليقتبسوا من الثقافة اليونانية والرومانية ويقفوا فيها على الحركة الدينية التي كان يبلغهم صداها. جاء في القرآن الكريم أن قبيلة قريش كانت لها رحلتان- رحلة الشتاء ورحلة الصيف. والباحثون مجمعون على أن هاتين الرحلتين كانتا للتجارة. ذلك أن أهل مكة كانوا تجارا من الدرجة الأولى، وكانت قوافلهم تنقل المتاجر من اليمن إلى الشام(3). وفي هذا يقول القرآن:"لإيلاف قريش، إلافهم رحلة الشتاء والصيف". (سورة قريش 1-2).

فالأولى إلى سوريا وفلسطين، والثانية إلى جنوبي جزيرة العرب، كما كان للمتعرضين منهم

(1) **أدب الرحلات**، ص 11.

(2) نفس المرجع، ص 14-15.

(3) نقولا زيادة، **الجغرافية والرحلات عند العرب**، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى 1980، ص 137.

لعطاء السادة والملوك، وللمترحلين في سبيل العلم والهداية رحل وأسفار تزودوا فيها من ألوان الثقافة والحضارة المتباينة واستقوا ما أفادهم علما، وأكسبهم يقينا. نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، النابغة الذبياني والأعشى وعلقمة الفحل، والمرقش الأكبر الذين وفدوا على ملوك الحيرة وغسان. ونذكر منهم زيد بن عمرو بن نفيل الذي شك في الأوثان، ورحل يطلب دين إبراهيم حتى بلغ الموصل والجزيرة ثم جال الشام، ونذكر كذلك الحارث بن كلدة الثقفي الذي تعلم الطب وضرب العود بفارس واليمن(1).

هذه هي الرحلات العربية في العصر الجاهلي، وهي رحلات لم يترك فيها العرب آثارا مكتوبة لهذا نكتفي بهذه الإلمامة التي نوطئ بها لدراسة الرحلات في الإسلام وسنخص بالذكر الرحلة في طلب العلم.

الرحلة في الإسلام

كان الإسلام نقطة تحول في تاريخ العرب، استطاعوا فيه بحكم فتوحاتهم ولعوامل تتصل بالتجارة وبطلب العلم وبالحج أن يجوبوا شتى الأقطار المسكونة، متعرفين إلى المناطق التي لم يكن لهم بها صلة من قبل(2).

بعد الفتوحات الإسلامية توسعت الرقعة الجغرافية للدولة الجديدة، فاحتاج الخلفاء إلى تنظيم الإدارة بالأقاليم وخاصة مصلحة البريد التي قد أجبرت كتاب الدواوين على تحصيل معلومات دقيقة عن المسالك والمراحل ومحصول الضرائب(3). فتكونت لدى الرحالة حاسة التقييد والكتابة فانتشر أدب الرحلة بين العرب انتشارا كبيرا منذ العصور الإسلامية الأولى، وقد تعددت الغايات والأغراض من الرحلات، فبعضها استطلاعي ذو طابع عسكري، وبعضها تجاري، وبعضها ديني وبعضها علمي(4).

وما يجدر الإشارة إليه هنا أن الإسلام بعد قدومه أولى أهمية لمسألة الرحلة والسير في الأرض وذلك بغية الاطلاع على أسرار الوجود والآيات الكونية، مراعيا في ذلك حياة العرب القديمة وثقافتهم القائمة على الحل والترحال نظرا لطبيعة المناخ الذي يتسم بالحرارة وندرة

---

(1) **أدب الرحلات**، ص 16.

(2) نفس المرجع السابق، ص 17.

(3) شارل بلا، **تاريخ اللغة والآداب العربية**، تعريب رقيق بن وناس وصالح حيزم والطيب العشاش، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى1997، ص 189.

(4) عبد الجبار الشريف، **الرحلة الأندلسية**، الدار التونسية للنشر، تونس1984، ص 13.

التساقط و بالتالي الجفاف، لكن القرآن والسنة النبوية رتبت على الرحلة في طلب العلم أجر ديني وعلو القدر في الدنيا وعلى هذا سنعرض بعض الأدلة والنصوص التي تحث على طلب العلم وتحمل أعباء السفر لتحصيله.

من القرآن الكريم

ذكر الله قصة إبراهيم بحيث قال لقومه:"إني ذاهب إلى ربي سيهدين" (الصافات 99). وهجرته من فلسطين إلى مصر طلبا للهداية، وفي هذا يقول تعالى:"وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين" (الأنعام 75).

وذكر القرآن أيضا قصة سيدنا موسى عليه السلام مع الخضر، وهذا عندما كان موسى عليه السلام يخطب يوما على بني إسرائيل ويعظهم ويذكرهم بالله عزوجل، فسأله أحد الحاضرين فقال: يا موسى من أعلم الناس على الأرض، فقال موسى أنا ولم يرد العلم لله، فقال له الله تعالى أنه يوجد من هو أعلم منك في مكان كذا وكذا، فهاجر إليه موسى ورحل لطلب العلم منه هو وغلامه يوشع بن نون، فلما التقى به موسى قال له"علمني مما علمت رشدا" (الكهف66).

وحث أيضا عزوجل على الرحلة في طلب العلم وتعليمه للناس فقال"فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون" (التوبة 122).

من السنة

عن كثير بن قيس قال: كنت جالسا مع أبي الدرداء في مسجد دمشق فأتاه رجل فقال: يا أبا الدرداء جئتك من مدينة رسول الله، لحديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال ولا جئت لحاجة؟ قال لا، قال ولا لتجارة؟ قال لا، قال ولا جئت إلا لهذا الحديث؟ قال بلى.

قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:"من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك به طريقا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع،وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض وكل شيء حتى الحيتان في البحر، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وأورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر".

وطلبة العلم والراحلين من أجله هم وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم. فعن أبي سعيد الخذري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"سيأتيكم أقوام يطلبون العلم،

فإذا رأيتموهم، فقولوا لهم: مرحبا بوصية رسول الله وأقنوهم – علموهم". أخرجه ابن ماجة (247) بسند حسن.

وعن عبد الله بن مسعود قال"والذي لا إله غيره لقد قرأت من في رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعا وسبعين سورة، ولو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله مني تبلغني الإبل إليه لأتيته".

قال العباس بن محمد الخرساني منشدا:

رحلت أطلب أصل العلم مجتهدا وزينة المرء في الدنيا الأحاديث

لا يطلب العلم إلا بازل ذكر وليس يبغضه إلا المخانيث

لا تعجبن بمال سوف تتركه فإنما هذه الدنيا مواريث

وعلى هذا الأساس كانت المدينة مقصد كل طالب علم في الصدر الأول من الإسلام، وذلك بحكم تواجد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وباعتبارها مهبط الوحي هي ومكة، فقد كانت الوفود تأتي النبي، فتسلم على يديه ثم يقوم عليه السلام بتعليم هذه الوفود أسس وأركان الدين الإسلامي، حتى إذا رجع هؤلاء إلى أقوامهم وعشائرهم بلغوهم ما تعلموه عن رسول الله.

لكن بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم انتشر الصحابة في شتى بقاع الأراضي المفتوحة لنشر دعوة الإسلام، وما تعلموه عن الرسول، وهذا اقتضى ضرورة السير إليهم للأخذ من علمهم وطلبا لعلو سند أحاديثهم، وهذا أن الثقافة العربية كانت لا تزال ثقافة شفوية، ومن هنا كانت الأذان والأفواه أقدر من العيون على تداول العلم(1).

وفي ذلك يقول الذهبي في معرض تعليله الذهاب إلى الرجال والأخذ من أفواههم، وكراهة الكتابة والإعراض عن التدوين، "لا ريب أن الأخذ من الصحف وبالإجازة يقع فيه خلل، ولاسيما في ذلك العصر، حيث لم يكن بعد نقط ولا شكل، فتتصحف الكلمة بما يحيل المعنى، ولا يقع مثل ذلك في الأخذ من أفواه الرجال"(2).

ثقافة الرحلة

و إذا أردنا رسم صورة للثقافة الإسلامية بكل اتجاهاتها وألوانها وما عرفته من صنوف المعرفة وفروعها فإننا سنكون عاجزين عن استيعاب كل ما كانت تعج به الحياة الثقافية في

(1) جورج طرابيشي، **إشكاليات العقل العربي**، دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى1998، ص 31.

(2) شمس الدين الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الحادية عشر2001، الجزء السابع، ص 114.

العصور الأولى للإسلام، ففي عهد العباسيين ازدهرت الثقافة واشتد الإقبال على الدرس والتحصيل وأعملت الرحلة من أجل الطلب وعلو السند،وانتشرت المدارس في كل المناطق والجهات وكثرت الحلقات والمجالس العلمية، وقد تعددت المراسلات والفتاوى في القضايا العلمية والاجتماعية والفقهية، مما جعل الثقافة العربية بكل ذلك، تتأصل وتتميز.

ومن مظاهر هذا الازدهار الفكري تعدد المراكز الثقافية وكثرة العلماء في هذا العصر الذي سندرسه.

أنواع الرحلات وأشهرها

فبعد أن أصبحت الرحلة ثقافة متأصلة في المجتمع العربي أخذت في الازدهار والتنوع حسب حاجات المجتمع آنذاك، فقد اهتم العرب بوصف البلاد التي دخلت مع فتوحهم في حوزتهم، فتحدثوا عنها في كتاباتهم التاريخية الأولى، ودعاهم ما في القرآن من إشارات إلى الأمم السابقة أن يطلعوا على ما عند أهل الكتب السماوية قبلهم من أخبارها، وضمنوا ما عرفوا من ذلك تفاسيرهم لآي الذكر الحكيم، وبمجرد أن أخذوا في العصر العباسي ينقلون ما عند الفرس والهنود والإغريق من معارف وعلوم حول العالم القديم، وخاصة من الوجهة الجغرافية، وكان فيما نقلوا جغرافية بطليموس.

وسنقف وقفات قصيرة عند طائفة من هذه الكتب، التي كانت نتاج هذه الرحلات الجغرافية. فهناك كتاب "المسالك والممالك" لابن حوقل، الذي طاف العالم ثلاثين سنة ثم وضع كتابه هذا حول المسالك التي زارها ومناخها وأشجارها وطولها وعرضها وسعتها، وبهذه الطريقة أطلعنا ابن حوقل على حياة أهل البلدان التي زارها.

ونجد أيضا كتاب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" للمقدسي، الذي ضرب في العالم الإسلامي وتنقل في ربوعه، ثم أخذ يدون هذا الكتاب "أحسن التقاسيم" مصورا أحواله الجغرافية والعمرانية، مهتما اهتماما شديدا بالحديث عن اختلاف أهل البلدان الإسلامية في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم ونقودهم وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم(1).

وهناك كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الأفاق" للإدريسي، الذي رحل في البلاد، في الأندلس والمغرب ومصر والشام وآسيا الصغرى، وانتهى به المطاف إلى صقلية، التي طلب

(1) **الرحلات**، ص 15.

منه أميرها أن يؤلف له كتابا حول الجغرافيا، فأنفذ طائفة من الرحالة إلى بلدان متفرقة ليأتوه بالمعلومات، فكتبوا له تقارير بما شاهدوه، أضافها إلى ما شاهده بنفسه في البلدان، وجمع أكثر ما كتب في هذا العلم، واتخذ من كل ذلك مادة لتأليف كتابه هذا، كما يسمى باسم "روجر" لأنه ألف من أجله أي الأمير.

وكذا كتاب "أثار البلاد وأخبار العباد" للقزويني، وكتابه هذا من أطرف الكتب الجغرافية عند العرب، وهو فيه لا يهتم للمسالك، إنما يهتم بأحوال البلاد والسكان.

إلى جانب هذا هناك رحلات بحرية، لأنه بمجرد أن أسس العرب دولتهم أخذوا يتصلون بالبحار القديمة مثل البحر الأحمر وبحر الروم، وأخذت قوافل التجار تعبره كما أخذت تعبر البحر الأحمر، وكان فتحهم المبكر للهند سببا في أن يقتحم تجارهم المحيط الذي يدور حولها، بل أخذوا يقتحمون بحر الصين أو المحيط الهادي، ونجد أيضا رحلات أخرى برية في الأمم والبلدان وأشهر رحلة عند العرب هي رحلة ابن جبير، ورحلة ابن بطوطة التي كانت من الأندلس إلى المغرب إلى مصر إلى الشام إلى الأراضي المقدسة إلى آسيا الصغرى، الهند والصين، والتي دونوا فيها عادات الناس وتقاليدهم ومعاشهم وأخبار ملوكهم ودولهم.

نوادر الرحلات

ما صنعه هذا الإمام العظيم الحافظ أبو عبد الرحمن بقي بن مخلد الأندلسي ـ رحمه الله ـ (ت 276 هـ) فقد نقل بعض العلماء من كتاب حفيده قوله : سمعت أبي يقول : رحل أبي من مكة إلى بغداد، وكان رجلا بغيته ملاقاة أحمد بن حنبل.

وهذه الرحلة يحدثنا بها صاحب كتاب (سير أعلام النبلاء) فيقول : قال : فلما قربت بلغتني المحنة، وأنه ممنوع، فاغتممت غمًا شديدًا، فاحتللت بغداد، واكتريت بيتًا في فندق، ثم أتيت الجامع، وأنا أريد أن أجلس إلى الناس، فدفعت إلى حلقة نبيلة، فإذا برجل يتكلم في الرجال، فقيل لي : هذا يحيى بن معين، ففرجت لي فرجة، فقمت إليه، فقلت : يا أبا زكريا ـ رحمك الله ـ رجل غريب، نـاء عن وطنه، أردت السؤال فلا تستخفني. فقال : قل. فسألت عن بعض من لقيته فبعضًا زكى، وبعضًا جرح، فسألته عن هشام بن عمار، فقال لي أبو الوليد : صاحب صلاة دمشق ثقة وفوق الثقة، لو كان تحت ردائه كبر أو متقلدًا كبرًا ما ضره شيئًا لخيره وفضله. فصاح أصحاب الحلقة : يكفيك ـ رحمك الله ـ غيرك له سؤال.

فقلت : وأنا واقف على قدم اكشف عن رجل واحد ـ أحمد بن حنبل.
فنظر إليَّ كالمتعجب فقال لي : ومثلنا نحن نكشف عن أحمد، ذاك إمام المسلمين وخيرهم وفاضلهم.

فخرجت أستدل على منزل أحمد بن حنبل، فدللت عليه، فقرعت بابه فخرج إليَّ فقلت : يا أبا عبد الله، رجل غريب، نائي الدار، هذا أول دخولي هذا البلد، وأنا طالب حديث، ومقيد سنة، ولم تكن رحلتي إلا إليك.

فقال : ادخُل الأسطوان ـ يعني به الممر إلى داخل الدار ـ ولا يقع عليك عين. فدخلت فقال لي : وأين موضعك ؟! قلت : المغرب الأقصى . فقال لي : إفريقية ؟ قلت : أبعد من إفريقية، أجوز من بلدي البحر إلى إفريقية بلدي الأندلس.

قال : إن موضعك لبعيد، وما كان غير أنِّي في حيني هذا ممتحن بما لعله قد بلغك.

فقلت : بلى قد بلغني، وأنا قريب من بلدك، مقبل نحوك.

فقلت له : يا أبا عبد الله، هذا أول دخولي، وأنا مجهول العين عندكم، فان أذنت لي أن آتي كل يوم زي السائل، فأقول عند الباب ما يقولونه، فتخرج إلى هذا الموضع، فلو لم تحدثني في كل يوم إلا بحديث واحد لكان لي فيه كفاية.

فقال لي : نعم على شرط أن لا تظهر في الحِلق، ولا عند المحدثين.

فقلت : لك شرطك.

فكنت آخذ عصا بيدي، وألف رأسي بخرقة، وأجعل ورقي ودواتي في كمي، ثمَّ آتي بابه، فأصيح : الأجر ـ رحمك الله ـ والسؤال هناك كذلك، فيخرج إلي ويُغلق باب الدار، ويحدثني بالحديثين والثلاثة والأكثر، فالتزمت ذلك حتى مات الممتحن له، وولي بعده من كان على مذهب السنة، فظهر أحمد، وعلت إمامته، وكانت تضرب إليه آباط الإبل، فكان يعرف لي حق صبري، فكنت إذا أتيت حلقته فسح لي، ويقص على أصحاب الحديث قصتي معه، فكان يناولني الحديث مناولة، ويقرؤه عليَّ، وأقرؤه عليه.

فهذا خبر من أعجب ما تقرأ، فهذا العالم الأندلسي رحل من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق على قدميه ليلقى الإمام أحمد، فلما وجده محبوسًا ممنوعًا عن الناس تلطف وتحيَّل حتى لقيه، فأخذ العلم عنه، وحفظ له الإمام أحمد صبره في الطلب وقربه منه.

ومن أخبار الرَّحَّالة المشَّائين في طلب العلم

ما ذكره أصحاب التراجم والسير عن أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي (ت 277 هـ) يقول : أحصيت ما مشيت على قدميَّ زيادة على ألف فرسخ [الفرسخ نحو خمسة آلاف متر، فانظر كم قطع هذا الرجل من المسافات مشيًا على الأقدام]، لم أزل أحصي حتى لما زاد على ألف فما من شيءٌ أحب إليَّ من فرسخ تركته، وأما ما سرت أنا من الكوفة إلى بغداد فما لا أحصي كم مرة، ومن مكة إلى المدينة مرات كثيرة، وخرجت من البحر من قرب مدينة سلا ـ وذلك في المغرب الأقصى ـ إلى مصر ماشيًا، ومن مصر إلى الرملة ماشيًا، ومن الرملة إلى بيت المقدس، ومن الرملة إلى عسقلان، ومن الرملة إلى طبرية، ومن طبرية إلى دمشق، ومن دمشق إلى حمص، ومن حمص إلى إنطاكية، ومن إنطاكية إلى طرسوس، ثمَّ رجعت من طرسوس إلى حمص، وكان بَقِي عليَّ شيء من حديث أبي اليمان فسمعته، ثمَّ خرجت من حمص إلى بيسان، ومن بيسان إلى الرقة، ومن الرقة ركبت الفرات إلى بغداد، وخرجت قبل خروجي إلى الشام من واسط إلى النيل، ومن النيل إلى الكوفي، كل ذلك ماشيًا، هذا سفري الأول وأنا ابن عشرين سنة، أجول سبع سنين، وخرجت المرة الثانية وكان سني في هذه الرحلة 47 سنة.

فانظر لحال هذا الرجل العجيب، كم قطع من المسافات مشيًا على الأقدام، وانظر لحال خروجه في سن السابعة والأربعين، لتعلم أنَّ العلم لا يتوقف على سن، بل العلم يطلب من المهد إلى اللحد.

ومثيله هذا الحافظ الجوال ابن منده (ت 395هـ) بدأ الرحلة في طلب العلم وهو ابن عشرين سنة، ورجع وهو ابن خمس وستين سنة، ولما عاد إلى وطنه تزوج وهو ابن 65 سنة، ورزق الأولاد، وحدَّث بالكثير.

وقد قال ـ رحمه الله ـ طفت الشرق والغرب مرتين.

يا طالب العلم هل لك إلى رحلة تنفض بها عنك تنكب الأطفال، وتُشهر سيفك وتنزل حلبة النِّزال، بل أسألك لماذا لا تلحق بركب هؤلاء الرجال ؟ في طلب الإسناد النازل والعال أن أحسن عون مثلك على مطلبه، أم أنك ما زلت في زمان الأحلام والآمال.

الفصل الثاني

حركية الترحال في العصر العباسي

مقدمة

إن كل مادة ثقافية أو إصلاح حضاري هو ثمرة لخطوات طويلة من المحاولة والخطأ بعضها داخلي وبعضها خارجي، ونتيجة لجدل مستمر بين المجددين والمصلحين من جهة، والمحافظين والجامدين من جهة أخرى. وطبيعي أن تكون الطائفة الثانية أوفر عددا وأعز نفرا، بينما الطائفة الأولى أكثر حماسة وأصدق عزيمة وأقوى دفعا. إنها الفكر المحرك والمخطط، وما على القطيع إلا أن يتبعها ويسير وراءها. إنها القلم، وهو (أي القطيع) المداد، ولا يكتب التاريخ إلا بقلم ومداد. إنها الأنامل وهو المادة الخام، ولا يصنع التاريخ إلا بأنامل تتصرف بحرية في المادة الخام.

وبمضي الزمن تدول دولة الجديد ويصبح قديما، ولا تكاد الزوبعة تهدأ حتى تثور من جديد. وهكذا دواليك. فكل حضارة في مسيرتها الطويلة وحركة الامتداد والتوسع التي تنطلق بها قدما، تضيف إلى مضمونها الذي حققه ماضيها عناصر جديدة صنعتها بنفسها أو استعارتها من جيرانها، ثم تسلم ذلك برمته إلى الأحفاد والأسباط الذين لا يبخلون عليه هم أيضا بجهودهم وثمرات عقولهم. ولقد نجم عن ذلك تقدم هائل كانت طليعته دائما قلة مختارة واجهتها كثرة عددية لا حصر لها. وكثيرا ما سقط هؤلاء الأفراد القلائل شهداء أفكارهم ومشاريعهم التي اغتالتها جماعات عمياء استمرأت حياة الظلام فلم تتهيأ أبصارها لرؤية فيالق النور.

الظروف السياسية

1- الحضارة العباسية هي فضاء

الحضارات مهما كان حجمها، كبيرة كانت أو صغيرة تستطيع دوما الاستقرار على رقعة جغرافية مهمة، ويكون ذلك وليد إما الإكراهات أو الامتيازات(1)، ونقصد إكراهات الدول والحضارات المتاخمة وكذا إكراهات الظروف الطبيعية، وامتيازاتها كقوة حضارية مادية ومعنوية تحتل فضاء جغرافي.

وهكذا الإسلام وبحركية قوافله في فضاءات " البحار بلا ماء" (2) أي الصحاري، شكل إطاره الحضاري، ولكن الفتوح العربية الإسلامية جاءت بالجديد بالنسبة إلى رقاع أخرى، امتدت الفتوح حتى ضمت وادي السند وما وراء النهر شرقا والأندلس غربا، وما بين هذا وذاك من شمال إفريقيا. واستتبع ذلك أن أصبحت رقعة التجارة وتبادل السلع والمتاجر تشمل منطقة واسعة سواء كانت هذه السلع مادية أو ثقافية، كما يقول مؤرخو الحضارات أن كل "حضارة تصدر وتستقبل سلع ثقافية" (3)، وبالتالي التاجر النشيط صار بإمكانه أن ينتقل بين قطر وآخر ومدينة وأخرى يشتري ويبيع دون أن يعيقه عائق، وبذلك انفتحت أمام العربي والمسلم مجالات واسعة كانت من قبل مقفلة، ومعنى هذا أن الرحلة في سبيل التجارة اتسعت أفاقها وزادت إمكانياتها، وما كان هؤلاء التجار ممن يمر بالبلدان دون أن يتعرف إلى أهله ويخبر أحوالهم، وكانت هذه المعرفة تنتقل رواية وأخبارا لتصبح فيما بعد جزءا من التراث الأدبي للرحلة(4).

وبعد أن استقر الإسلام في رقاع إمبراطوريته. ونشأت مراكز للعلم في الأجزاء العربية والغير العربية منه، رحل الناس في طلب العلم من مكان إلى آخر، فهذا بغدادي يشد الرحال إلى دمشق، وهذا دمشقي يقصد بخارى، وهذا تونسي يرحل إلى القاهرة، وهذا قاهري يطلب العلم في فاس. وهذه الرحلة في طلب العلم دونت أخبارها وصنفت في مدارج التراث العربي الإسلامي(5).

---

(1) Braudel Fernand, **Grammaire des civilisations**, Flammarion, Paris, 1998, page 40.

(2) Ibid, p 42.

(3) Ibid, p 45.

(4) نقولا زيادة، نفس المرجع السابق، ص 137.

(5) نفس المرجع، ص 138.

إذن فاتساع رقعة الدولة العباسية وغياب الحدود كان بمثابة عامل أساسي وحاسم لانتشار ظاهرة الرحلة في طلب العلم على وجه الخصوص، وهذا التوسع الجغرافي الذي عرفته الدولة العباسية حينذاك، سهل التجارة والرحلة(1)، فقد قال بعض مؤرخي أوروبا:"إن زيت التجارة قد أشعل مصباح الحضارة"(2)، وكانت الإمبراطورية الإسلامية تجتمع على وحدة دين ولغة وثقافة فنزع العرب إلى دراستها عن طريق الرحلات والأسفار، وشجعهم على هذا شيوع إكرام الضيف من ناحية، وبساطة العيش عند أهل هذه العصور من ناحية أخرى، مع اهتمام الإسلام بالسفر حتى رفع عن المسافر بعض التزاماته الدينية، وتميزت أكثر رحلاتهم بدقة الملاحظة، وصدق الرواية، والاعتماد على استيفاء الحقائق على المشاهدة المقصودة، ويقول المسعودي في مقدمة مروج الذهب"ولكل إقليم عجائب يقتصر على علمها أهله، وليس من لزم جهة وطنه، وقنع بما نما إليه من الأخبار عن إقليمه، كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار، واستخرج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكمنه".(3)

فالرحلة على وجه الخصوص هي التي فتحت لهم العالم الجديد، الذي سمح لهم بإقامة تصور خاص، وكذا التفرد التاريخي والأنتروبولوجي عن الآخر، وفي الإسلام كان للرحلة نتائج منطقية ذات معنى. وكانت أفق الرحالين مبنية على فضاء غير محدود جغرافيا يطلق عليه دار الإسلام أو مملكة الإسلام، والرهان الذي كان قائما أمام هذا البناء الجديد هو تأسيس وحدة جيودينية وجيوسياسية أصبحت فيما بعد وتصاعدت إلى حقيقة العيش معا والذي هو إرادة الله، وهذا التقسيم الجغرافي على أساس دار الإسلام ودار الكفر أو الحرب سيضمن الخصوصية الثقافية والدينية وبالتالي التفرد في الهوية وبناء "égocentrisme"، لذا هؤلاء الرحالة لم يتجاوزوا أبدا حدود دار الإسلام(4). وكذلك تركز العلماء في المدن وحول الملوك والخلفاء والسلاطين دعا بعض طلبة العلم إلى القيام بالرحلة(5).

---

(1) سليمان الخطيب، **أسس مفهوم الحضارة في الإسلام**، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، الطبعة الأولى 1986، ص 49.

(2) توفيق الطويل، **العرب والعلم**، دار النهضة العربية، القاهرة 1968، ص 68.

(3) نفس المرجع، ص 55.

(4) Touati Houari, **Islam et voyage au moyen âge**, Le Seuil, Paris 2000, pp 11,14.

(5) سامي زبيدة، **انتروبولوجيات الإسلام**، دار الساقي، بيروت،لبنان، الطبعة الأولى 1997، ص 15.

2- الإصلاح السياسي

قامت الدولة العباسية عام 750/132، بعد سقوط الدولة الأموية، وكان لسقوطها أسباب كثيرة منها، الصراع بين الأمويين وآل البيت، وكراهية الموالي للأمويين لتعصبهم للعرب، والنزاع بين القبائل العربية، وضعف الأمويين في آخر أيامهم.

وامتدت الدولة العباسية في الزمان حتى عام 1258/656 عندما استولى التتار على بغداد. ويعتبر قيامها نقطة تحول في دولة الإسلام، وذلك أن صبغة الدولة أصبحت إسلامية عالمية بعد أن كانت عربية(1)، والعصر العباسي الطويل وإن كان ينسب إلى العباسيين إلا أن دولا كثيرة قد نشأت أثناء هذا العصر، استقل بعضها عن الدولة العباسية استقلالا تاما كالدولة الأموية في الأندلس والدولة الفاطمية في المغرب ومصر، وظل بعضها الآخر يدين بالولاء للخليفة العباسي ،ولطول العصر العباسي فقد قسمه المؤرخون إلى عدة عصور:

1) العصر العباسي الأول: ويبدأ من قيام الدولة عام 750/132، وينتهي بتولي المتوكل الخلافة عام 846./232

2) العصر العباسي الثاني: ويبدأ من تولي المتوكل عام 846/232، وينتهي بسيطرة البويهيين عام 945/334.

3) العصر العباسي الثالث: ويبدأ بسيطرة البويهيين عام 945/334، وينتهي ببدء نفوذالسلاجقة عام 1055/447.

4) العصر العباسي الرابع: ويبدأ بسيطرة السلاجقة عام 1055/447، وينتهي بسقوط بغداد في يد هولاكو عام 1258/656.

وقد كان الفرس هم دعامة الثورة العباسية، لذلك كانت لهم المكانة الكبيرة فيها، فقد اتخذ الخلفاء وزراءهم وكتابهم من الفرس منذ قيام الدولة، حيث تولى الوزارة على عهد السفاح أبوسلمة الخلال، ثم خالد بن برمك، وفي عهد المنصور تولى الوزارة أبوأيوب سليمان المورياني، ثم أبوالفضل الربيع بن يونس، وفي عهد الرشيد يحي بن خالد البرمكي، وفي عهد المأمون الفضل بن سهل والحسن بن سهل وهكذا. وقد أدى نفوذ الفرس السياسي والثقافي إلى انتشار الثقافة الفارسية والعادات والتقاليد التي ورثوها عن حضارتهم السابقة.

---

(1) نبيلة حسن محمد، **في تاريخ الدولة العباسية**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 2003، ص 05.

اهتم العباسيون بالشريعة الإسلامية منذ أن كانوا تنظيما سريا، ومن مبادئ وشعارات الدعوة العباسية التي رفعتها ونادت بها، رفع شعار الدعوة إلى الإصلاح، والتمسك بالكتاب والسنة، والمساواة بين الشعوب، وإنصاف الشعوب التي أسلمت واندمجت في الحضارة الإسلامية وهذه الشعارات تعد من صميم أهداف الشريعة الإسلامية، وتدل على معنى خاص في ديننا، هو عدم التفرقة بين الناس بحسب ألوانهم أودمائهم أوتاريخهم، وقد تمسك العباسيون بهذا المبدأ وشنعوا به على بني أمية(1).

وتعتبر مدرسة عبد الله بن عباس المكية هي المرجعية الحركية والشرعية لهم، فقد اهتم ابنه علي بن عبد الله بن عباس بتراث أبيه وعلومه، وقد ألزم ابنه محمد وهو من زعماء الدعوة العباسية أصحاب جده ابن عباس، حتى تعلم وفقه وجلس يوما يفتي في المسجد الحرام بمثل فتيا جده، وقد أبهرت فتواه سعيد بن جبير رضي الله عنه، حين سمعه فقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني رجلا من ولد العباس يفتي بفتواه، والمعلوم لدى الباحثين أن عبد الله بن عباس تقدم في التفسير بسبب عوامل متعددة منها، دعاء النبي صلى الله عليه وسلم له بالفقه في الدين والعمل بالتأويل، وكذلك منزلته من عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والأخذ من كبار الصحابة، وقوة الاجتهاد، وقدرته على الاستنباط، فقدرات ابن عباس التربوية والتعليمية، ورحلاته وأسفاره جعلته من علماء المدرسة المكية، وقد تميزت هذه المدرسة من بين المدارس بكثرة تناولها الآيات وتفسيرها، وساهمت مساهمة قيمة في الإبانة عن كثير من المعاني التي يحتاج إليها، ويرجع ذلك لأسباب عديدة منها، إمامة ابن عباس للمدرسة، الأثر المكاني للمدرسة كونها بمكة، وكثرة رحلاتهم وأسفارهم وحرصهم على نشر علمهم، والتصنيف والتدوين المبكر لأثار المدرسة.

ومن الإصلاحات التي حاول بنو العباس القيام بها هي توحيد التشريع وإخضاع الناس لأحكام موحدة، فقد حاول أبو جعفر المنصور مع الإمام مالك، فقد توجه إلى الإمام مالك قائلا: قد أردت أن أجعل هذا العلم علما واحدا فأكتب به إلى الأمراء والأجناد وإلى القضاة فيعملون به، فمن خالف ضربت عنقه،إلا أن الإمام مالك رفض هذا الأمر وأكد على شرعية الاختلاف بين الفقهاء والعلماء،وكذا فيما يتعلق بالرعية، نصح أبو يوسف هارون الرشيد في هذا الخصوص في عبارات بليغة ضرورة أن يجعل الرعية في بؤرة اهتمامه، وأن يرفع عنها

(1) هدى بوفرحات، **قصة وتاريخ الحضارات العربية بين الأمس واليوم**،édito creps ،جزء 1-2 بدون تاريخ ص61.

أي حيف أو ظلم، وقد أكد أبو يوسف على أمور هامة بخصوص الراعي و الرعية وهي:
ضرورة اهتمام الحاكم بأمور رعيته وإقدامه على أي أمر يعمل على إراحتها وسكينتها.
1) ضرورة إحاطة الحاكم علما بأخبار ولاته على رعيته، وعدم ستر أي خبر عنهم.
2) التنكيل بكل من يعمد تزييف الحقيقة بخصوص العلاقة بين الولاة والرعية.

إذن فقد حاول خلفاء الدولة العباسية ومنذ البدء إصلاح الأوضاع السياسية لخلق جو حضاري يساعد كل الملل والنحل والثقافات على الانصهار في بوتقة الحضارة الجديدة التي ستحمل على عاتقها حمل العلوم اليونانية والتشاريع الرومانية، وخلق فضاء جديد وواسع نحو ظهور سمات جديدة تقوم على أساس العلم وطلبه وتحصيله والعمل به والرحلة من أجله، فمظاهر الإصلاح السياسي من انصراف السلطة إلى الإصلاحات الاجتماعية والمرافق العامة، وتكثيف النشاط التجاري الذي أدى إلى ازدهار عمران المدن وتسهيل التنقل في أرجاء الإمبراطورية، واختلاط الأجناس من فرس وترك وهنود ساعدت كثيرا تنقل العلماء وطلبة العلم وبالتالي الرحلة، لأن نموذج العلم وطلبه تأصل في مخيال السلطة السياسية عبر خلفاءها لهذا ساعدت طلبة العلم ووفرت لهم كل الأجواء من أجل طلب العلم من بناء للمساجد والكتاتيب ودور العلم والمكتبات والرباطات والترجمة لتراث الحضارات السابقة.

3- خلفاء بني العباس وإرادة المعرفة

نجد في التراث العربي الإسلامي قول مأثور وهو:"اطلبوا العلم ولو في الصين"، وطلبه خلفاء بني العباس في الصين وفي غير الصين(1)، وانفتح العباسيون على العالم الذي وصلوا إليه بالفتوحات خاصة(2)، وبالفعل نشاهد في هذا العصر وفي هذه الفترة المحددة من التطور التاريخي اتساعا في المبادلات الثقافية مرجعه أحداث سياسية مرتبطة سواء بالفتوحات أوبالاحتكاك الحضاري على الصعيد العام أو على مستوى العلم والتعليم، وقد انتشرت هذه الثقافة الواحدة المتنوعة في آن واحد، في الأوساط القيادية والإدارية وأوجدتها احتياجات الدولة(3).

---

(1) محمد عبد الرحمن مرحبا، **أصالة الفكر العربي**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الطبعة الأولى 1983،ص 14.
(2) هدى بوفرحات، نفس المرجع السابق، ص 85.
(3) جون جوليفييه، **انتشار الفكر الفلسفي**، الإسلام الفلسفة والعلوم، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، باريس1983، ص 37.

فقد كانت مناصب الدولة تعطى للمستحق الكفء دون اعتبار لعقيدته أو مذهبه، وبرؤية مخلصة صافية لمقتضيات المصلحة الاجتماعية التي تأتي أولا، فقد ظل الأطباء المسيحيون في العهد العباسي في رعاية الخلفاء والأمراء، وكان لهم حق الإشراف على مدارس الطب ببغداد قرونا طويلة(1).

وحتى استجلاب العلوم اليونانية إلى دار الإسلام في العصر العباسي نشأ بدافع الحاجة إليها ولم يكن مجرد ترف فكري، فقرار تصنيف كتب الجدل في الرد على الزنادقة والملحدين الذي اتخذه المهدي(2)، وكذا قرار تأسيس بيت الحكمة الذي اتخذه المأمون، يرجع أمر اتخاذه إلى اعتبارات شخصية ذاتية، وله أسبابه ومبرراته الموضوعية التي لها صلة بالخيار الأيديولوجي للدولة العباسية في نهاية القرن الثاني للهجرة ومطلع الثالث، وتتمثل محاولة المأمون كي يتحصن من الحركات الشيعية المعارضة، تحصين الإسلام (= الدولة) بالعقل ممثلا في العقل اليوناني(3).

كان عصر المأمون من أزهى عصور العلم في الدولة العباسية، لميل المأمون نفسه إلى تحصيل العلوم والمعارف ونشر المعرفة بين أفراد الأمة الإسلامية، وكان المأمون مثقفا ثقافة فارسية لأن أمه كانت فارسية، وكان يميل إلى حرية الفكر والبحث(4).

واكتسب هذا من خلال ما يحكى عنه أنه رأى في المنام أرسطو نفسه يقول له أنه لا فارق أساسيا بين الشريعة أي الإسلام والحكمة (الفلسفة) اليونانية(5)، ولما دخل المأمون بغداد وقر بها قراره، أمر أن يدخل عليه من الفقهاء والمتكلمون وأهل العلم جماعة يختارهم لمجالسته ومحادثته(6)، مما دفعه إلى إيجاد مجالس المناظرة حتى يتمكن عن طريقها من إزالة الخلاف بين العلماء فيما يدلون به من أراء علمية(7).

---

(1) محمد عبد الرحمن مرحبا، نفس الرجع السابق، ص 09.

(2) السيد عبد العزيز سالم، **دراسات في تاريخ العرب (العصر العباسي الأول)**، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية1995، ص 65.

(3) سالم يفوت، **مكانة العلم في الثقافة العربية**، ثقافات، بدون تاريخ أو دار نشر، ص 36.

(4) علي إبراهيم حسن، **التاريخ الإسلامي العام**، مكتبة النهضة المصرية،القاهرة1972، ص 407.

(5) جون جوليفييه، نفس المرجع السابق، ص 38.

(6) محمد صادق العفيفي، **تطور الفكر العلمي عند المسلمين**، مكتبة الخانجي، القاهرة1977،ص 48.

(7) علي إبراهيم حسن، نفس المرجع، ص407.

كان المأمون يجلس للمناظرة يوم الثلاثاء من كل أسبوع، يقول المسعودي:"فإذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر أهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة، وقيل لهم: انزعوا خفافكم، ثم أحضرت الموائد، وقيل لهم، أصيبوا من الطعام والشراب وجددوا الوضوء، ومن خفه ضيق فلينزعه، ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها، فإذا فرغوا أتوا بالمجامر فبخروا وطيبوا، ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنوا منه، ويناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها من مناظرة المتجبرين، فلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشمس"(1).

وهكذا نرى كيف يؤثر العامل السياسي في توجيه مسار الرحلة ورعايتها، وقد لاحظنا أن في الفترة العباسية كيف كان لاتساع الحدود الجيوسياسية دورا مهما في نشاط الرحلات بشتى أنواعها، عكس اليوم بحيث أصبحت تمثل الحدود الوطنية عائقا أمام طلبة العلم، فيما يتعلق خاصة بالترتيبات الإدارية، واكتشفنا أيضا مدى أهمية عامل الإصلاح السياسي وتأثيره المباشر على الواقع العلمي وكيف استطاعت الدولة العباسية من القيام بإصلاحات مست كل جوانب الحياة وكانت لهذا نتيجة طيبة على العلم والعلماء والرحلة في طلب العلم، وهذا ما تفتقده المجتمعات العربية اليوم وهو المشروع الاجتماعي الفعال الذي لابد أن يؤسس لمجتمع المعرفة، والعامل الثالث والأخير هو إرادة خلفاء بني العباس في دعم العلم وطلابه بتوفير كل متطلبات العلماء والطلاب وذلك بإنشاء المدارس والكتاتيب والمساجد والربط وذلك كله ما يفتقده زعماء وأنظمة الدول العربية، بحيث أصبحت هي العائق أمام العلم وطلابه وحامليه، لأن مؤسساتها المكلفة بالتعليم والبحث وضعت شروط (عوائق) خاصة إداريا أمام طلبة العلم الذين يريدون الاستزادة من العلم خارج نطاق أوطانهم وفي هذا الصدد يقول أحد المبحوثين"الإدارة لا ترحب بك لماذا؟ فنحن لدينا روح الكفاية والتكبر، يعني أتكبر بلا ما عندي والو"(2).

---

(1) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، موفم للنشر، الجزائر1990، الجزء الرابع، ص 20.

(2) دكتور 54 سنة تخصص محاسبة.

المظهر الاجتماعي

1- الحضارات هي مجتمعات وذهنيات

لا وجود لحضارات بدون مجتمعات التي تحتضنها، وتنشط قوتها وتقدمها، **فمرسيل موس** يعتبر"كلمة حضارة هي بلا شك أقل وضوحا من كلمة مجتمع"، فالمجتمع لا يمكن أن يكون منفصلا عن الحضارة، فكلا المصطلحين يرتبطان بنفس الحقيقة. فعندما يتحرك المجتمع ويتحول فكذلك الحضارة تتحول وتواصل دورتها وتعطي نظرتها الأساسية للعالم هذه النظرة التي هي عبارة عن نقل ونتيجة ضغوطات اجتماعية مهيمنة، والحضارة هي مرآة عاكسة لهذه الضغوطات والقوى الاجتماعية. كما أن الحضارات هي أيضا ذهنيات جماعية ووعي، ففي كل فترة تاريخية هناك تصور عام للواقع والعالم من طرف المجتمع هذه الذهنية التي تملي المواقف وتوجه الاختيارات وتؤسس الأحكام(1).

من خلال هذا التأصيل التاريخي الذي قدمه **فرناند برودال** والعلاقة التي رسمها بين المجتمع و الصورة الحضارية التي يقدمها في مرحلة تاريخية معينة، هذا سيسمح لنا أو بالأحرى يوجهنا إلى استعراض ملامح المجتمع العباسي الذي بدأ في تأسيس ملامح حضارة جديدة والتي تحمل تنوع واختلاف في البنية الاجتماعية، وتزخر بالظواهر الاجتماعية خاصة تلك المتعلقة بالحياة العلمية فقد كان المجتمع العباسي مختلفا جدا عن المجتمع الأموي في عدة نقاط:

ـ كان المجتمع الأموي عربي الطابع وأما العباسيون فلم يتحيزوا للدم العربي، إذ لم يكن بين الخلفاء إلا قلة من أبناء العربيات، كأبي العباس السفاح، والمهدي، والأمين.

ـ اهتم الخلفاء العباسيون بالشكليات المتعلقة بالخلافة والتي أخذوها عن تقاليد الفرس(2).

ـ كان هناك تقسيم طبقي قائم سواء على المكانة المادية أو العلمية بين خاصة وهم (الخلفاء والأمراء والوزراء والأشراف)، وعامة (من أصحاب المهن والحرف الصغيرة والرقيق)، وكان المجتمع العباسي يحوي عناصر بشرية متعددة من أهل ذمة (وهم أهل الكتاب من يهود ونصارى)، ومجوس، لهذا ظهرت طبقة اجتماعية هي مزيج من العرب والترك والفرس والروم(3).

---

(1) Braudel Fernand, Ibid, p 47.

(2) هدى بوفرحات نفس المرجع السابق، ص 79.

(3) نفس المرجع، ص 80.

وكما أسلفنا الذكر أن التنوع في التركيبة الاجتماعية سيفرض على الدولة العباسية أن تجد الطريق لاحتواء هذا التنوع، والمساهمة في الاحتكاك ما بين العنصر العربي الذي هو في طور بناء الحضارة، وكذا العنصر الأجنبي الذي يحمل بذور التحضر والذي دخل في ظل الدولة الجديدة وسيشارك في بناء المجتمع الحضاري الجديد بأفكاره ولكن بثقافة ولغة عربية إسلامية، هذا ومن سمات الحضارة أن تجمع تنوع في الأصول الاجتماعية وتستطيع أن تصهرهم في إطار بوثقة سوسيوثقافية وسياسية، وهذا ما توصلت إليه الدولة العباسية من خلال بسط نفوذها على المراكز الحضارية القديمة وبالتالي على مجتمعاتها جعل منها تخلق ثراء حضاري ومعرفي وثقافي وعقلي فلسفي.

فهذا التنوع سيؤسس لقيام ذهنية وفكر يميل إلى إعطاء حرية العقل ودعم العلم ومؤسساته والاهتمام بطلبة العلم ومعلميه، وهذا الجو كذلك سيخلق مظاهر عدة ستميز الحضارة الجديدة كالظاهرة التي نحن بصدد دراستها وهي الرحلة في طلب العلم وذلك باعتبار أنها نتاج توفر واجتماع شروط سوسيوثقافية أسست لبناء ذهنية توقر العلم والسعي الحثيث لطلبه بشتى الوسائل، وإن كانت شاقة كالتغرب عن الأهل وطول السفر، وسهر الليالي وأحيانا الفقر.

2- الرحلة والمحيط الاجتماعي

لكي نحيط بهذا العنصر الهام، سنحاول أولا دراسة العلاقة بين العلم والمجتمع أو المحيط الاجتماعي، وبالتالي سنتحصل على منظر شامل حول علاقة الرحلة بالمجتمع فهناك علاقة طردية بين قيمة العلم في مجتمع ما وقيمة طلبه وتحصيله وإذا تطلب الأمر السفر لبلوغ ذلك، ففي بدايات القرن العشرين بدأت الدراسات السوسيولوجية تطرح الإشكالات وتثير الأسئلة حول علاقة العلم خاصة العلوم الطبيعية منها والمجتمع: مثل: ما هو محرك البحث العلمي؟ وهل العلم هو نشاط منعزل عن المجتمع؟ وكيف يمكن لعلم جديد أو نظرية جديدة أن تظهر؟ هذه الأسئلة وغيرها تقتضي من الباحثين الرجوع إلى أصول العلم الاجتماعية ودراسة تلك العلاقة التي تظهر بعيدة نوعا ما في البداية لكن السوسيولوجيين حاولوا دراسة فحوى هذه العلاقة وبالتالي التفكير حول علاقة المعرفة والمجتمع.

فكرة العلم هي أنه موجود في عالم وحيد، عالم مختلف عن المجتمع، والدراسات التي أجريت حول العلوم من طرف الفلاسفة والمؤرخين وعلماء الاجتماع تظهر لنا صور مختلفة تماما، فمنذ قرن من الزمن قربت تحاليلهم تدريجيا العلم من المجتمع، واستبعدوا تصور أن

العلم هو نشاط مختلف عن النشاطات الإنسانية الأخرى، إذن هناك علاقة بين البنية الاجتماعية ونظام المعرفة كما يقول كوندرسيه (1743 - 1794)(1). فلقد نبه المؤرخون أن الاكتشافات العلمية لا تحصل في الحقيقة بالصدفة، وإنما يكون الذهن قد تهيأ منذ زمن لاستيعابها(2).

ومن هذا المنطلق نلاحظ نحن أيضا من خلال تصفح التاريخ العباسي أن المجتمع كان مهيأ ذهنيا وتاريخيا لخلق جو مديني يمتاز بالحرية الفكرية التي تمنح للعقل فرصة التعبير عن نفسه في ظل الاختلافات العرقية والدينية، وهذه الصورة العامة من إرادة سياسية وجماعية، وثقافة دينية مبنية على أساس المشافهة ستدعم نوع خاص من الطلب للعلم يختلف تماما عما هو موجود اليوم في ظل التكنولوجيات الجديدة للاتصال، وهذا ما اقتضى بروز ظاهرة الترحال الموافقة لطبيعة المجتمع القائم آنذاك وخاصة المجتمع العربي المعروف بالترحال. وجاء الدين وأضفى عليها صفة القداسة ورتب عليها الأجر والثواب في الدنيا بعلو الشأن والمكانة وفي الآخرة بدخول الجنة.

فهذا يعطينا فكرة حول صورة المجتمع العباسي ومحيطه الاجتماعي الذي بني حول الرحلة في طلب العلم، وكما قال برودال أن المجتمع يكون جاهزا ويعطي الضوء الأخضر للتطور(3)، فمن خلال تتبعنا للمسار التاريخي للمجتمع العربي، نلاحظ أنه مجتمع له ثقافة راسخة في الترحال، وذلك لعوامل بيئية متعلقة بالطقس والجفاف وندرة التساقط ما دفعه للترحال والبحث عن مناطق تكون متوفرة على الماء والكلأ، وهذا ما حرمه بعض الشيء من عيش حياة التمدن إلا قليلا، فكما هو معروف في تاريخ الحضارات معظمها قامت على ضفاف الأنهار والبحار حتى سميت الحضارات المائية أو النهرية، والعنصر الآخر المهم هو مرتبط بالثقافة العربية التي كانت قائمة على المشافهة وكان لهذه الثقافة أثر في تلقين العلوم الإسلامية فيما بعد والتي اعتمدت التدوين في زمن متأخر نوعا ما.

---

(1) Vinck Dominique, **Sociologie des sciences**, Armand Colin, Paris1995, page 15.

(2) عبد الله العروي، **ثقافتنا في ضوء التاريخ**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب الطبعة السادسة2002، ص 137.

(3) Braudel Fernand, **Civilisation matérielle économie et capitalisme**, Armand Colin, Paris1979, tome2, page 535.

أما العنصر الثالث فهو كما ذكرنا سابقا النصوص الشرعية المقدسة التي دعت وألحت على المسلمين في طلب العلم والهجرة في سبيل تحصيله. فهذه العناصر الثلاث كانت الإطار العام الذي احتضن الرحلة في طلب العلم، بحيث يقول ألان توران كانت بمثابة عمل المجتمع على نفسه ."capacité d'action sur elle-même" (1).

3- الثورة العباسية وديمغرافية بغداد

إن تولي الأسرة العباسية للسلطة وما تلا ذلك من نقل عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد كان له نتائج بعيدة المدى من حيث خلق خلفية ديمغرافية كانت سندا وموصلا للحركة العلمية، فمع قيام الثورة العباسية وبناء بغداد وانتقال عاصمة الخلافة إلى العراق تبدل وضع الدولة العربية، من حيث التوجهات الثقافية تبدلا بالغ الأهمية، ومن ثم، وعلى مدى بعيد عن التأثير البيزنطي في دمشق، قام في بغداد مجتمع متعدد الثقافات أساسه المزيج السكاني المختلف ديمغرافيا في العراق، وكان هذا يتألف من (أ) مسيحيين ويهود ناطقين بالآرامية الذين كانوا يشكلون أكثرية السكان المستقرين، (ب) من ناطقين بالفارسية الذين كانوا يتمركزون في المدن أصلا و(ج) من عرب كان البعض منهم مستقرين ومسيحيين مثل سكان الحيرة على الفرات، والبعض الآخر بدويا في ربوع المناطق الزراعية في شمال العراق، وقد تمركز العرب المسلمون وهم بطبيعة الحال غير أولئك الذين استقروا في العاصمة الجديدة، في شمال المركز التجاري الموصل وفي السواد إلى الجنوب في مدن الحاميات الأصلية التي أنشأوها: الكوفة والبصرة وواسط وقد زودت الاثنتان الأوليان منها، بدءا من القرن الثاني الهجري/ التاسع الميلادي وما تلا ذلك، أحد أهم المؤثرات في خلق الثقافة الجديدة في بوثقة خاصة، كان ثمة بطبيعة الحال جماعات إثنية تقيم في العراق وما وراءه، وبخاصة في إيران (مثل الأكراد في شمال العراق وفي جبال زغروس والبلوخ في جنوب غرب إيران ...الخ)، كل من هذه الجماعات ساهمت، على نحو أو آخر في الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية للعاصمة الحديثة، وما يسمى الحضارة الإسلامية الكلاسيكية هو نتيجة التخمر كل هذه العناصر المتباينة في طبيعتها والتي أنتجتها الخلفيات والمعتقدات والممارسات والقيم المتباينة.

بالقدر الكبير الذي اضطر الأمويون فيه إلى الاعتماد على البيزنطيين المحليين والعرب

(1) Touraine Alain, **Pour la sociologie**, Le Seuil, Paris1974, page 206.

المسيحيين لتسيير الإدارة، كان العباسيون الأوائل مضطرين إلى الاعتماد على الفرس والعرب المسيحيين والآراميين المحليين في إدارتهم للأمور(1).

المظهر الاقتصادي

ـ الأهمية الاقتصادية للفتوح العربية

كانت ثمة أحوال مادية هي التي هيأت الخلفية التي أعدت للرحلة في طلب العلم أن تحدث وتزدهر، وهذه الأحوال المادية قامت على حادثتين تاريخيتين بالغتي الأهمية الفتوح العربية المبكرة في الفترة الأموية والثورة العباسية التي بلغت الذروة سنة 750/132، في أقل من ثلاثين سنة بعد وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم سنة 632/11 كانت الجيوش العربية قد فتحت من جنوب غرب أسيا وشمال شرق إفريقيا البلاد التي كانت، قبل ألف عام قد احتلها الاسكندر الكبير، وبذلك قضت على الإمبراطورية الساسانية الفارسية (224 ـ 601) وريثة الفرثيين الذين كانوا قد استردوا من إمبراطورية الاسكندر البلاد الواقعة إلى الشرق من نهر الفرات واستعادوا على نحو لايقبل التراجع، فتوح الاسكندر في الهلال الخصيب ومصر، وهي الأرض التي حكمها بعده، على التوالي خلفاؤه الأدنون ثم الرومان ثم البيزنطيون. ومع أن الإمبراطورية التي أقيمت ونظمت حتى سنة 732/113 على أسس الإسلام، وهو الدين الذي أوحي به إلى النبي صلى الله عليه وسلم قيض لها أن تتسع رقعتها. من أواسط أسيا وشبه القارة الهندية إلى إسبانيا والبرانس. فإن قلب الحضارة الجديدة التي أنشأتها استقر في مراكز الحضارة القديمة من فارس عبر أرض الرافدين وبلاد الشام إلى مصر. إن أهمية الفتوح العربية الإسلامية لا مجال للمبالغة فيها، إن مصر والهلال الخصيب وحدت مع فارس والهند سياسيا وإداريا، والأبلغ في الأهمية كان التوحيد الاقتصادي، إذ أنه حدث لأول مرة منذ الاسكندر الكبير، ولمدة قيض لها أن تمتد أطول. إن الحاجز الاقتصادي والثقافي الكبير الذي يفصل العالم المتمدن لألف سنة خلت قبل ظهور الإسلام، والحد بين الشرق والغرب، الذي أقامه النهران الكبيران، والذي خلق قوات متنافرة في كل من جهتيهما، انتهى إلى غير رجعة. وهذا أتاح الفرصة للمواد الخام والمصنوعات والمنتوجات الزراعية وعناصر الرفاهية والناس والخدمات والتقنيات والمهارات والآراء والأساليب وطرق التفكير أن تنتقل بحرية.

(1) ديمتري غوتاس، **الفكر اليوناني والثقافة العربية**، ترجمة نقولا زيادة، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى2003، ص 55-56.

إن الأثر النافع لهذا الحدث زاد في أهميته أنه جاء في أعقاب الحروب البيزنطية الفارسية التي دارت رحاها بين عامي (570 - 630) والتي دمرت المنطقة وقضت على عشر السكان المحليين وأنزلت الفوضى بالتجارة. إن هذه الحروب مثل جميع الخصومات التي قامت بين اليونان والرومان والبيزنطيين، في الناحية الواحدة والفرس في الجهة الأخرى، أنتجتها الحواجز الاقتصادية الناشئة عن تقسيم الشرق الأدنى سياسيا إلى شرق وغرب، وعلى وجه الخصوص فإنه يبدو أن الوصول إلى طرق التجارة الشرقية ـ الغربية كان لب الصراع . وفي الفترة التي سبقت تجدد الخصومة بعد وفاة يوستنيان سنة 565م عمد سلفه يوستين الثاني (565 - 578)، والذي كان يدرك إدراكا تاما الأثر النهائي الذي يمكن أن تتركه الحروب في التجارة عمد إلى الدخول في مفاوضات مع الأتراك الغز أواسط أسيا للحصول للبيزنطيين على مسلك إلى طريق الحرير الشمالي، إلى شمال بحر قزوين(1).

ثمة ناحية هامة تتعلق بالازدهار الاقتصادي الذي كان لعودة الوحدة إلى الشرق والغرب فضل في تيسيرها، وهي تستحق منا الإشارة خاصة مع أن التجارة أفادت إفادة هامة من السلام الإسلامي "pax islamica" فإن الزراعة هي التي عرفت ثورة. فإن إزالة الفواصل بين الهند وشرق البحر المتوسط أدت إلى أن تم انتقال منتظم إلى كل من جنوب غرب آسيا والبحر المتوسط ضروبا متعددة من النباتات والخضار والفواكه وتطوير ضروب جديدة وكذلك الفنون الزراعية ومعرفة الزراعة المكثفة والاستعمال الوافي للأرض المراحة، ذلك أن منطقة بلاد ما بين النهرين أيضا، هي من أخصب المناطق الإسلامية، بعد وادي النيل لذلك اهتم العباسيون بالزراعة منذ القدم وقد أنشأوا القنوات الضخمة. ومنها قناة عيسى التي تربط الفرات عند الأنبار بدجلة عند بغداد، وقناة نهر صرصر وتنتهي عند المدائن، وعند الجنوب شقت قناة عرفت باسم الصراة، ومنها تتفرع أقنية صغيرة للري(2).

2- الطرق والمواصلات والوقف

لقد كانت هناك شبكة طرق برية قديمة قبل الإسلام والإغريق بزمن طويل، وفيها ما يعود إلى زمن الفراعنة والآشوريين والكلدان والتابعة، كما أن فيها ما يعود إلى الفينيقيين والفرس والإغريق وغيرهم من الشعوب والأنظمة التي حكمت المناطق التي دخلت فيما بعد

---

(1) نفس المرجع السابق، ص 45.

(2) هدى بوفرحات، نفس المرجع السابق، ص 82.

تحت السيطرة الإسلامية. على أن السلطات المسلمة لم تكتف بصيانة الطرق القديمة، بل استخدمت أو شقت طرقا أخرى داخلية أو للربط بين الأقطار الإسلامية، ومبدأ احترام الطريق العمومي وارد في الإسلام كمؤسسة وقفية وضعها بعض الفقهاء بمثابة المسجد وحرمته الوقفية، وورد الحديث النبوي قوله صلى الله عليه وسلم "لاضرر ولا ضرار في الإسلام والطريق المئتاء سبع أذرع" والطريق المئتاء هو المطروق، وسبع أذرع هو الحد الأدنى للطريق الذي سيمر منه راكبان في اتجاهين متعاكسين.

والطرق البرية الرئيسية تناولها الجغرافيون وبينوا مراحلها ومسافاتها وما يكتنفها من صعاب وما قد تتوفر عليه من تسهيلات، فهناك على سبيل المثال طريق ساحلي يمتد من مصر وينتهي إلى المغرب مرورا بتلمسان ثم فاس. وهناك طريق صحراوي يمر ببرقة وزويلة وفزان ويتجه إلى القيروان ومنها إلى المغرب الأوسط عبر الزاب ثم باتجاه تلمسان أو بلبالا ومن هذه إلى سجلماسة ثم ردعة، والحركة بين الخطوط دائبة باتجاه إفريقيا الغربية الوسطى، مما لا يحتاج إلى تكرار بعد أن دقق فيه الإصطخري واليعقوبي وغيرهما. ونجد الجغرافيين في وقت مبكر (ابتداءا من القرن الثالث) يحددون المسافات ونقط النزول، وبينهم من يعطي المسافات بالمراحل ومن يقدرها بالفراسخ أو الأيام. والمرحلة تعادل المسافة التي تقطعها الدابة يوميا وهي حوالي ثلاثين كيلومترا قد تزيد أو تنقص، فمسيرة ثلاثة أيام هي ثلاث مراحل تقريبا وقد تصل المرحلة إلى ستين كيلومترا أو أكثر، وكانت مدة عشرة أيام كافية لقطع المسافة بين فاس وتلمسان خلال القرن السادس، ومنطقة النوبة من أسوان إلى نهايتها تجتازها القوافل في خمس ليال، وحدد ابن خرداذبه الطرق بالفراسخ وأحيانا بالأميال كما في الطريق بين العراق وبادية العرب.

واعتمد الجغرافيون لبضعة قرون، مدينة بغداد كملتقى أساسي لمجموع الطرق الدولية لاسيما الإسلامية، وهكذا يبدأ تقرير المسافات منها وإليها، وقد استحقت بغداد هذه الأفضلية لأنها كانت أكبر عاصمة اقتصادية وسياسية للعالم الإسلامي لبضعة قرون بعد نشأتها، وكان التوجه إلى الصين يتم منها إلى هرمز الإيرانية ثم أفغانستان، ومنها إلى الهند ثم إلى الصين، والطريق إلى الشاش بآسيا الوسطى يبدأ من العراق إلى مرو ثم بخارى فقندهار ثم سمرقند فزامين فالشاش. أما بالنسبة للمغرب فابتداء من بغداد إلى سمراء فنصيبين فحلب، ثم دمشق،

فطبرية، فالرملة فالفسطاط، فبرقة(1).

ولا يفوتنا أن نذكر بالملاحة النهرية لأنها ترتبط ارتباطا وثيقا بالطرق البرية، لأن جزءا منها يرتبط بهذه الطرق وبالتالي يتصل بالتجمعات السكنية بالمدن والأرياف معا، وقد كانت الملاحة النهرية من أهم الوسائل التي لجأت إليها الشعوب القديمة في التواصل البشري والتجاري.

أما الوقف فهو عملية تأمين ثابتة لمصلحة خاصة أو عامة وبوسائل شرعية وقد وجد الوقف لدى ديانات أخرى قبل الإسلام، ولكن التشريعات الإسلامية بشأن الوقف دقيقة وواسعة، وللوقف والميراث وجوه اقتصادية عديدة ولو أن الوجه الديني هو مبدؤها وهدفها، فالوقف على المؤسسات الدينية والاجتماعية من مساجد وزوايا ومدارس ورباطات هي أكثر المؤسسات أوقافا بحكم ارتباط شرائح عريضة من المؤمنين بها يوميا حسب ظروفهم وميولهم. والمساجد أحضاها بكثرة الأوقاف، لكن بعد أن عمت الزوايا والخوانق والرباطات عددا كبيرا من العالم الإسلامي وبواديه لاسيما منذ القرن السابع، أصبحت تنافس المساجد أوقافا بما في ذلك المزارع والبساتين والعقارات من كل صنف(2).

وكان نوع آخر من الوقف هو الوقف على التعليم والتثقيف، فالأوقاف في هذا المجال عمل ديني واجتماعي، فالتعليم وسيلة لمعرفة أحكام الدين وترمي إليه نصوص الوحي والسنة، وتحبيس الخزائن والكتب هدفه تنمية المعرفة وتوسيع مجالاتها مما يعتبر معينا على العمل الدنيوي والأخروي معا، لكن الوجه الاقتصادي يبقى قائما، لأن المدارس تعمل على تخريج الفقهاء والمثقفين ومختلف الإطارات التي لها دور في الحياة اليومية والاجتماعية. ولذلك نجد الأوقاف تشمل الكتاتيب والمدارس ومواد التدريس وعددا من كتبه، كما تعم الإنفاق على الطلاب والأساتذة. وقد كان ما أثار انتباه ابن جبير كتاب كبير بدمشق خصص وقفه للأيتام من الصبيان ولمعلمهم، ويكسى منه هؤلاء الأطفال ويخصص لهم ما يقوم بهم، وتحدث المقريزي عن كتاب مماثل بالقاهرة بجوار جامع الملك الناصر، وقد كانت الكتاتيب غالبا ما تجاور المساجد أو تقرب منها كما هو الشأن في المدارس أيضا، ولم يكن يخلو منها حي أو قرية في عموم البلاد الإسلامية. والمدارس تشمل عادة على بيوت لإيواء الطلبة وقد ينزل بها الغرباء

(1) إبراهيم حركات، **النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط**، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء1996، ص 194.

(2) نفس الرجع، ص 216.

أيضا(1).

3ـ نفقات الرحلة:

الرحلة والسفر يتطلب نفقات باهظة، فعلى الطالب أن يسدد نفقات المأكل والمسكن والتنقل في البر والبحر، وعليه أيضا أن يقتني الورق والكتب، بدون حساب النفقات التي تكون دائما زائدة وطارئة على طالب العلم. فطلبة العلم الذين ينطلقون إلى مسارتحصيل العلم والمعرفة فهم يخرجون عادة في سن مبكرة وأسرهم هي التي تقوم بتجهيزهم، فمحمد بن كثير جهز من طرف والديه من مسقط رأسه طبرستان، وكان يستقبل باستمرار المال في كل مرحلة من مساره التعليمي، وفي أحد الأيام تأخر المال في الوصول إليه فرأى أن يبيع ملابسه حتى يسد حاجته من الأكل، وكذلك المؤرخ الكبير الطبري الذي بدأ بالرحلة وهو جد صغير كان يستقبل من والديه المال لمراعاة شؤونه من مدينة إلى أخرى، ولقد ارتحل في البلاد الإسلامية طويلا حتى وصل إلى الغرب وبالتحديد إلى مصر وكان ينتظر أياما وليالي جوعا حتى تصله نفقة أبويه إليه، فهو يقول "أن المال الذي كان أبي يرسله إلي تأخر في الوصول فاضطررت من الحاجة إلى تمزيق كم التنورة وبيعه".

وكان أيضا هناك من الطلبة من يرث مالا فينفقه من أجل الدراسة وتحصيل العلم كما حدث مع اللساني اللغوي أبو إسحاق الحربي الذي ورث ثروة مكنته من تحقيق حلمه ومبتغاه وهو التفرغ لطلب العلم، فقدم من خرسان واستقر في العراق، وفي يوم ما نراه في عاصمة الخلافة يستقبل من مسقط رأسه جملين محملين تماما بالورق الخرساني، فقيل له: أنه يستعمل كثيرا الورق والحبر فقال أن لديه 12000 كراسة للتدوين خاصة بعلم الفلسفة والحديث فيسأل كيف جمعها في كتب؟ فأجاب "بلحمي ودمي، بلحمي ودمي"(2). فهذا يبين وإن كان له مال وفضل إلا أنه لاقى متاعب ومشاق مالية، فالرحلة تبقى اختبار حاسم ومؤلم الذي قدم له كأجر ومقابل "لحمه ودمه".

وإذا كان الأب أديبا أو تاجرا يأخذ معه ابنه أحيانا في جولاته، فأبوبكر السجستاني (928/316) كان يسافر مع أبيه المحدث الكبير لسجستان أبوداود (888/275) إلى خرسان

(1) نفس المرجع، ص 219.

(2) Houari Touati, Ibid, p 97.

والفرس وإلى الحجاز والعراق وسوريا ومصر، وفي نفس الظروف أبو العباس النيسابوري (651/340) تبع أباه المكتبي الوراق ولم يكن يبلغ من العمر سوى أربعة عشر سنة فسار معه إلى أصبهان والكوفة وبغداد ومكة وعسقلان ودمشق وطرسوس والفسطاط.

وكان يحدث أحيانا أن الطلبة يرحلون بأموالهم الخاصة كتجارة أو ما شابه ذلك، فكل من التجار وطلبة العلم كانوا يسافرون في نفس القافلة وينزلون في نفس الأماكن، وكانوا ينفقون على أنفسهم، فمثلا عبد الله بن المبارك الذي كان من أسرة غنية أعطاه أبوه 50 ألف دينار ذهبي ليقوم بصفقة تجارية فاستغلها كي ينفق في طلب العلم، وكذا خارجة بن مصعب تلميذ أبي حنيفة النعمان في العراق (767/150) أنفق 100 ألف درهم فضي، وهناك أيضا هشام بن عبد الله (835/221) أنفق حوالي 700 ألف درهم فضي(1).

وهذا ما يأخذنا إلى الإرادة الفردية المتوفرة لدى طلبة العلم اليوم من أجل الرحلة إلى البلدان المعروفة بالعلم والمعرفة سواء في العلم الشرعي أو المدني، كأوروبا مثلا فنجد أن الطلبة ينفقون من مالهم الخاص نفقات معتبرة تصل أحيانا إلى 500 ألف دينار جزائري (50 مليون سنتيم) من أجل القيام بالرحلة وتحصيل شهادة عليا في علم من العلوم(2).

---

(1) Ibid, p99.

(2) طالب جامعي 25 سنة تخصص شريعة إسلامية "تاريخ إسلامي".

.

الفصل الثالث

نماذج من الرحلات

مقدمة

شهدت الحياة الفكرية في العصر العباسي ازدهارا كبيرا في شتى الميادين، يعود سببه إلى ظهور الكثير من العلماء والمفكرين في مختلف العلوم وانتشار حركة الترجمة واهتمام الخلفاء بها، إضافة إلى التوسع في التعليم العام وبناء المدارس والمؤسسات الثقافية مثل دور العلم والربط فضلا عن المساجد. ومن العلماء البارزين في اللغة والأدب والشعر الخليل بن احمد الفراهيدي في علم النحو والعروض (نظم الشعر) وعمرو بن الجاحظ في الأدب والبلاغة والأصمعي في الأدب واللغة, كما تميز الإمام بن ثابت الكوفي المعروف بابي حنيفة والقاضي أبي يوسف في علم الفقه. أما شعراء هذا العصر فمن أبرزهم أبو العتاهية والعباس بن الأحنف وأبو تمام الطائي و البحتري و المتنبي والشريف الرضي و أبو العلاء المعري و أبو نواس ومن المؤرخين البارزين محمد بن جرير الطبري و اليعقوبي وبرز في الجغرافية المسعودي أما في الرياضيات والفيزياء فقد برز أبو الحسن بن الهيثم وفي علم الجبر محمد بن موسى الخوارزمي وفي الكيمياء جابر بن حيان وغيرهم كثيرون ممن ترجمت مؤلفاتهم إلى اللغات الأوربية واستفيد منها في النهضة الأوربية الحديثة. وقد اهتم الخلفاء بالعلم والعلماء فقربوهم وشجعوهم فكان لذلك أثره الكبير على الرقي الفكري في هذا العصر، وأبرزهم الخليفة هارون الرشيد وابنه المأمون الذي اشتهر بتقريبه العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والكتاب وتشجيعهم على البحث والتأليف وتوفير كل ما يحتاجون إليه في بحوثهم ودراساتهم. ومن الطبيعي أن يكون العصر العباسي الأول أنسب العصور ملائمة للنهضة الثقافية، فقد بدأ الاستقرار فيه و أنتظم ميزان الأمة الاقتصادي، و كانت النهضة العلمية في العصر الأول تتمثل في ثلاثة جوانب هي:حركة التصنيف، تنظيم العلوم الإسلامية، الترجمة من اللغات الأجنبية.

المظهر الثقافي

تعتبر الحياة الثقافية في العصر العباسي من أبرز معالم الحياة في العصور الإسلامية على الإطلاق، فقد ازدهرت الحركة الثقافية، وانتشر العلم انتشارا واسعا، وتأسست المعاهد الدراسية، وشاعت الحلقات العلمية، وأقبل الناس بلهفة على طلب العلم، يقول نيكلسون:"وكان لانبساط رقعة الدولة العباسية، ووفرة ثروتها، ورواج تجارتها أثر كبير في خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل، حتى لقد بدا أن الناس جميعا من الخليفة إلى أقل أفراد العامة شأنا غدوا فجأة طلابا للعلم أو على الأقل أنصارا للأدب، وفي عهد الدولة العباسية كان الناس يجوبون ثلاث قارات سعيا إلى موارد العلم والعرفان ليعودوا إلى بلادهم كالنحل يحملون الشهد إلى جموع التلاميذ المتلهفين، ثم يصنفون بفضل ما بذلوه من جهد متصل هذه المصنفات التي هي أشبه شيء بدوائر المعارف، والتي كان لها أكبر الفضل في إيصال هذه العلوم الحديثة إلينا بصورة لم تكن من قبل"(1).

1- براديغم المشافهة وبداية التدوين

أقر بعض المؤرخين أن الثقافة العربية هي ثقافة مشافهة وهذا النموذج دام عصور طويلة وبقي حتى مجيء الإسلام حتى أواخر الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية فقد كان العرب يعتمدون على تناقل الأخبار والآثار والعلم رواية، بالإضافة إلى أن حروف الهجاء العربية لم تكن واضحة وربما كان يبهم قراءتها، فهذه الحال فرضت قيام نموذج أو براديغم المشافهة القائم على تناقل العلم مشافهة من في العالم وهذا ما زاد من ديناميكية الرحلة لدى طلبة العلم قصد مشافهة العلماء والأخذ عنهم النور الذي يمتلكونه، وعملنا في هذا العنصر هو الكشف عن حال هذا البراديغم، والبدايات الأولى لعصر التدوين، وكيف تلقاه المجتمع باعتباره نموذج جديد لحفظ العلم أي في بطون الكتب لا في صدور العلماء؟

والآن سنورد نصا للإمام الذهبي الذي استدل به السيوطي في بداية عصر التدوين في كتابه "تاريخ الخلفاء". "قال الذهبي: في سنة ثلاث وأربعين ومائة شرع علماء الإسلام في هذا

---

(1) أحمد شلبي، **التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، الطبعة الرابعة1970، ص 233.

العصر في تدوين الحديث والفقه والتفسير. فصنف ابن جريج بمكة، ومالك الموطأ بالمدينة، والأوزاعي بالشام، وصنف ابن إسحاق المغازي، وصنف أبو حنيفة رحمه الله الفقه والرأي، ثم بعد يسير صنف هشيم والليث وابن لهيعة ثم ابن المبارك وأبو يوسف وابن وهب، وكثر تدوين العلم وتبويبه، ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس. وقبل هذا العصر كان الناس يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة"(1).

لقد حدد النص سنة 143 للهجرة كتاريخ لبداية التدوين في الإسلام، وهذا التاريخ يمكن قبوله، بزيادة بضع سنين أو نقصها، إذا فهمنا من التدوين تلك العملية الواسعة التي تمت بإشراف الدولة ابتداءا من عهد المنصور العباسي الذي ولي الخلافة ما بين 136 إلى 158، والتي طبعت الحياة الفكرية والاجتماعية العربية الإسلامية بطابعها لفترة من الزمن امتدت نحو قرن من الزمن أو يزيد، فأصبحت علما عليها وصار ذلك العصر يسمى: عصر التدوين.

وحدد النص كذلك الأماكن، أو الأمصار التي انطلقت فيها عملية التدوين تلك، وهي مكة والمدينة والشام والبصرة والكوفة واليمن، وهي الأمصار التي كانت مراكز تجمع استقطبت الرجال الحاملين في وثائقهم وصدورهم الموروث الإسلامي الذي كان بدأ يتضخم ويتشعب، ولم يغفل النص الإشارة إلى الطريقة التي كان يمارس بها العلم والمعرفة من قبل، فأوضح أن الناس كانوا قبل هذا العصر "يتكلمون من حفظهم، أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة"، فهذه المعلومات مفيدة جدا لمؤرخ العلوم العربية الإسلامية فهي تحدد تاريخ الشروع في تأسيسها والمراكز الأولى التي كانت مسرحا لعملية التأسيس. وإذن فعصر التدوين هو الإطار المرجعي الحق للعقل العربي وليس العصر الجاهلي ولا العصر الإسلامي الأول ولا ما قبلهما(2).

ومن هنا نلاحظ أن ما حدث في عصر التدوين ـ بغض النظر عن حدوده الزمنية ـ لم يكن عملية تسجيل ولا عملية تفريغ وتظهير، بل عملية إنتاج وبناء وتنظيم للثقافة العربية الإسلامية، فما من شيء كان جاهزا، بل كان كل شيء برسم الاختراع والتأسيس والتثبيت، ثم التعقيد والتقنين والتسنين. والحال أن كل ما يمكن أن يدل عليه تعبير عصر التدوين هو أن ثقافة بعينها ـ هي هنا الثقافة العربية الإسلامية ـ قد انتقلت في ذلك العصر من طور شفاهي

(1) جلال الدين السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، موقع الوراق، ص 171.

(2) محمد عابد الجابري، **تكوين العقل العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت1998، ص 71.

إلى طور كتابي(1).

وهكذا رحل علماء اللغة إلى البادية يقيدون اللغة والأدب، ورحل علماء الحديث إلى الأمصار المختلفة يقيدون الحديث، ورحل الأدباء إلى نواحي المملكة الإسلامية يأخذون عن أدبائها، ورحل طلاب الفلسفة إلى القسطنطينية وغيرها في طلب الكتب اليونانية للترجمة، وكذلك الشأن في كل فرع من فروع العلم، فالخليل بن أحمد وأبو عمرو بن العلاء وأبو زيد الأنصاري والأصمعي والكسائي يرحلون إلى البادية ويسمعون منهم اللغة والأدب، ويقيدون ما يسمعون(2). وكان المحدثون أنشط الناس لرحيل، وأصبرهم على عناء، ذلك أن الصحابة عند الفتح تفرقوا في الأمصار، فمنهم من سكن فارس، ومن سكن العراق، ومن سكن مصر، ومن سكن الشام، ومن سكن المغرب، وكان هؤلاء يحملون حديثا عن رسول الله أخذه عنهم التابعون ومن بعدهم، فكان في كل مصر طائفة من الحديث لا تعرف في الأمصار الأخرى، فجد العلماء في الرحلة يأخذون الأحاديث عن أهلها ويجمعون ما تفرق منها، وكان باعثهم الديني يذلل كل عقبة، ويسهل كل مشقة ـ فمثلا ـ يحي بن يحي الليثي البربري الأصل، الأندلسي النشأة، رحل إلى المشرق وهو ابن ثمان وعشرين سنة، فسمع من الليث بن سعد وعبد الله بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم. ومسلم بن الحجاج صاحب الصحيح كان بنيسابور ورحل إلى الحجاز والعراق والشام ومصر ونيسابور. والبخاري صاحب الصحيح رحل في طلب الحديث إلى أكثر محدثي الأمصار، وكتب بخرسان والجبال ومدن العراق والحجاز والشام ومصر وقدم بغداد واجتمع إليه أهلها(3).

وكتدليل على الطفرة النوعية التي مثلها صدر العصر العباسي بالمقارنة مع العصر الأموي من وجهة نظر "تدوين العلم وتبويبه"، يورد أحمد أمين نص الذهبي إياه بحرفه، نقلا عن "تاريخ الخلفاء" للسيوطي، ويعلق عليه بقوله: "من هذا النص نرى مصداق ما ذكرنا من أن العلم في العهد الأموي كان رواية العلماء من حفظهم أو من صحف جمعت حيثما اتفق ... فلما جاء العصر العباسي ميزت العلوم وجمعت مسائل كل علم على حدة، بل ووضعت المسائل المتشابهة تحت باب واحد(4).

---

(1) جورج طرابيشي، **إشكاليات العقل العربي**، دار الساقي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى1998، ص 14.

(2) أحمد أمين، **ضحى الإسلام**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة1964، الجزء الثاني، ص 70.

(3) نفس المرجع، ص 71.

(4) نفس المرجع، ص 11.

ويتنبه الذهبي في هذا النص إلى عدد من الحقائق المتصلة بنشأة العلوم الإسلامية، ولعل أهمها مرورها في القرن الثاني ـ في سنة 143 كما يقول ـ من مرحلة التسجيل "غير المرتب" إلى التصنيف المبوب، وتوافق تصنيف مختلف العلوم بعضها مع بعض في عصر واحد، وظهور التصنيف في مختلف البقاع الإسلامية معا(1). ويقول الذهبي في كتاب "تذكرة الحفاظ" "وأخذ حفظ العلماء ينقص، ودونت الكتب واتكلوا عليها، وإنما كان قبل ذلك علم الصحابة والتابعين في الصدور، فهي كانت خزائن العلم لهم"(2). وهذا ما أبرز ظاهرة السفر إليهم لنيل العلم من صدورهم.

ونحن لسنا هنا أمام صورة مطابقة للواقع التاريخي بقدر ما نحن أمام حاجة إيديولوجية إلى بناء واقع تاريخي كهذا، فعملية الاختراع والتدليس الهائلة التي شهدتها القرون الثلاثة أو الأربعة الأولى، والتي جعلت العلم يتضخم حتى أربى عدد الأحاديث المروية على الستمائة والستين ألفا، أوجدت حاجة مضادة إلى إنقاذ الصحيح وإلى إحاطته، ضمانا لشروط الصحة، بكل الحرمة والقدسية المطلوبتين، وليس كالصدور والقلوب ملجأ لكل ما يراد له أن يبقى في منجى من كذب الكتب والكتابين، ولذلك ظهرت ألقاب الحفاظ، مثل الحافظ ابن رجب، الحافظ ابن كثير والحافظ ابن حجر. والآثار في ذلك أكثر من أن تحصى فعلى لسان سفيان الثوري قيل:"ما استودعت قلبي شيئا قط فخانني"، وعلى لسان سفيان أيضا:"بئس مستودع العلم القراطيس"، وعلى لسان الأوزاعي:"كان هذا العلم شيئا شريفا، إذ كان من أفواه الرجال يتلاقونه ويتذاكرونه، فلما صار إلى الكتب ذهب نوره وصار إلى غير أهله".

ونستطيع هنا أن نتقرى مظهرا من مظاهر المقاومة التي تبديها كل ثقافة شفوية في طور الانتقال إلى ثقافة كتابية. ولقد كانت الثقافة اليونانية مرت بطور مماثل وبالتالي بموقف رافض من هذا القبيل، عندما بدأ الكتاب يحل في القرن الرابع ق.م، بفضل ورق البردي المستورد من مصر عن طريق جبيل، محل التعليم المباشر للفلسفة، ففي أكثر من مرة عبر سقراط عن ازدرائه لكتب أناكساغوراس التي تباع عند وراقي الساحة العامة في أثينا بفلسين، فالكتابة، بدلا من أن تنمي العلم والذاكرة كما يزعم أنصارها، ليس من شأنها إلا أن تستحدث النسيان في النفوس إذ تتأداها إلى إهمال الذاكرة.

---

(1) شاكر مصطفى، **التاريخ العربي والمؤرخون**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان،الطبعة الثانية1980،الجزء الأول،ص 92-93.

(2) جورج طرابيشي، نفس المرجع السابق، ص 22.

وطالبو العلم إذ يضعون ثقتهم في الكتابة ويتحرون عن الحقيقة من الخارج، بواسطة رسوم أجنبية، لا من الداخل، من أعماق أنفسهم، فإنهم لن يحوزوا سوى دعوى العلم، لا العلم(1).

وفي ذلك يقول الذهبي في كتابه "سير أعلام النبلاء" في معرض تعليله كراهة الكتابة والإعراض عن التدوين:"لاريب أن الأخذ من الصحف وبالإجازة يقع فيه خلل، ولاسيما في ذلك العصر، حيث لم يكن بعد نقط ولا شكل، فتتصحف الكلمة بما يحيل المعني، ولا يقع مثل ذلك في الأخذ من أفواه الرجال"(2)، فقد كان يقال "العلم سماع"، وأن "العلم الذي يجب قبوله ويلزم العمل به هو المسموع دون غيره".

فالواقع أن الداخل إلى غابة العلم لابد له أن يندهش لكثافة الصراع الذي نشب في الصدر الأول بين أصحاب الحفظ والرواية الشفوية وأصحاب الكتابة والوجادة. ثم حصل الانقلاب فيما بعد وأصبح العلم مأمورا به ومهجورا بأمره، فهذا معاوية بن قرة المزني يعيب عدم الكتاب:"من لم يكتب العلم فلا تعد علمه علما"، وابن المبارك يعترف "لولا الكتاب ما حفظنا"، والخليل بن أحمد يقر ويباهي"ما سمعت شيئا إلا كتبته، ولا كتبت شيئا إلا حفظته، ولا حفظت شيئا إلا انتفعت به". أما المشرع للعقل العربي الذي كان الشافعي، فقد شرع للكتاب:"اعلموا رحمكم الله أن هذا العلم يند كما تند الإبل، فاجعلوا الكتب له حماة، والأقلام عليه رعاة". ولم يتردد أحمد بن حنبل في قلب سلم التقييم عاليه سافله:"حدثونا، قوم من حفظهم وقوم من كتبهم، فكان الذين حدثونا من كتبهم أتقن"(3).

إن هذا الانقلاب في الموقف من الكتابة ينبع من أسباب فنية، فتقنية السماع والحفظ، مع شيء من تقييد العلم عند الاقتضاء بطريقة الاختزال كما نقول اليوم، كانت تفي بالغرض ما دام العلم محدود الحجم، ولكن مع تحول الرحلة في طلب العلم أو تحمله كما كان يقال، إلى ظاهرة جماعية وشبه طقسية. حتى لقد بات يعد من يموت وهو في الطريق إلى العلم شهيدا. ومن تضخم العرض من جراء تضخم الطلب والانتقال من طور تداول العلم بالمفرق إلى طور تداوله بالجملة، لم يعد في مستطاع الذاكرة وحدها استيعاب الدفوقات المتكاثرة(4).

ولابد أن ننبه إلى أن هذا لا يعني أن العرب كانوا، كما يفترض الشاطبي وابن خلدون،

---

(1) جورج طرابيشي، نفس المرجع السابق، ص 30.

(2) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة1993، الجزء السابع، ص 114.

(3) الخطيب البغدادي، **تقييد العلم**، موقع الوراق، ص 109-115.

(4) جورج طرابيشي، نفس المرجع السابق، ص 40.

أمة أمية، فشفوية الثقافة لا تتنافى ووجود أشكال محدودة من الكتابة. ولو كان العرب يجهلون كل شكل من أشكال الثقافة المكتوبة، لما كان القرآن الذي توجه إليهم هم أولا بالخطاب، ووصف نفسه بأنه الكتاب بألف ولام التعريف، ولما كان حدثهم عن الأسفار والقراطيس والأقلام، ولما كان أقسم ب" والقلم وما يسطرون" وب"ربك الأكرم الذي علم بالقلم".

2- حركة الترجمة

إن دراسة حركة الترجمة هي دراسة للعوامل الاجتماعية والسياسية والإيديولوجية التي أدت إلى حركة ترجمة لم يسبق لها مثيل من اليونانية إلى العربية في بغداد، العاصمة المنشأة حديثا للأسرة العربية، العباسيون، خلال القرنين الأولين من فترة حكمهم (القرن الثاني وإلى نهاية القرن الرابع الهجري/الثامن وإلى نهاية العاشر الميلادي). لأن قيام الخلافة العباسية واتخاذ عاصمتها بغداد منذ أيام المنصور فإن قسما كبيرا من أراض هي مرتكز الخلافة العباسية كان قد عرف الهلينية من قبل، والدولة القائمة لم تكن تعنى بالخلافات المذهبية المسيحية التي كانت تقيد الحركة الفكرية إلى درجة كبيرة في الإمبراطورية البيزنطية، ومن ثم كانت هناك حرية انطلاق في نواحي الفكر للفئات المختلفة، بالإضافة إلى أن العاصمة الجديدة بغداد كانت حديثة النشأة مكانا وسكانا، ومن ثم فإن التعامل معها كعاصمة، وتعاملها هي مع المناطق التي تشرف عليها كان متحررا من ارتباطات وعصبيات قبلية.

فلقد تميز هذان القرنان بنشاط حركة الترجمة وازدهارها، على يدي خليفتين اهتما بالعلم والعلماء هما، المنصور والرشيد وإن كانت جهودهما لم تبلغ ما بلغته الترجمة على يدي المأمون(1).

وفي هذا الباب صدر منذ عقد من الزمن عمل قيم ومهم للأستاذ ديمتري غوتاس أستاذ اللغة العربية وآدابها بجامعة "ييل" الأمريكية، يشير إلى كل مراحل الترجمة اليونانية العربية ويعتبرها بمثابة ظاهرة اجتماعية وتاريخية، فقد شكك غوتاس وطرح الأسئلة حول تلك الهالة التي كانت تلبسها حركة الترجمة وخاصة في عصر المأمون، وحول الحلم الأرسطي الذي رآه المأمون ويقوم بتحليله، كما كان قد درس قضية بيت الحكمة. وتوصل إلى القول بأنهما ضخما من أجل التأكيد على دور المأمون كراع لحركة الترجمة أصلا، والنشاط العلمي والفكري على نحو عام، ويضع المؤلف أمامنا لائحة بالرعاة والداعمين للحركة كجماعات

(1) يحي وهيب الجبوري، **الكتاب في الحضارة الإسلامية**، دار الغرب الإسلامي، بيروت1998، ص 143.

تشمل، الخلفاء العباسيين وأسرهم (بما في ذلك بعض سيدات البلاط)، ورجال البلاط على اختلاف درجاتهم وهويتهم وأهوائهم، ورجال الدولة والحرب، وكذا الباحثين والعلماء أنفسهم، وحركة الترجمة من هذا المنظار، كانت حركة اجتماعية فكرية شارك فيها كل من أمكنه ذلك من سكان بغداد وغيرها من المدن كمرو وبخارى ونيسابور.

ومن هنا يرى غوتاس أن هذه المشاركة الجماعية، إذا جاز التعبير، هي التي يسرت لحركة الترجمة أن تستمر نيفا وقرنين من الزمان وأن تنتج هذه الحركة العلمية الكبيرة(1).

كما يمكننا توجيه ملاحظة هي أن حظ العلوم السياسية في الترجمة عند المسلمين كان يسيرا ، فلسنا نعرف لهم مؤلفا في السياسة ولا مترجما، ولا نعرف لهم بحثا في شيء من أنظمة الحكم ولا أصول السياسة اللهم إلا قليلا لا يقام له وزن إزاء حركتهم العلمية في غير السياسة من الفنون(2). وذلك أن المسلمين كانوا يملكون النموذج السياسي الحي وهو مثال قيام الدولة النبوية وأصولها، فهذا جعل المسلمين يحتذون بهذا النموذج والذي يتناسب مع طبيعتهم ومحيطهم الاجتماعي والذي برز في نموج الخلافة، وكذلك الرباط القوي بين الدين والسياسة، ثم توقفت ترجمة الكتب العلمانية من اليونانية، ويرى غوتاس أن سبب ذلك هو أنه لم يبق ثمة ما يستحق الترجمة، ويبدو هذا صحيح، ولكن لماذا توقف التفكير الفلسفي؟ لماذا توقف النتاج الفكري إن كان قد تأصل مع حركة الترجمة التي أخذت الصبغة الجماعية؟ والسبب سنعود إليه في عنصر منفرد فيما بعد وهو مساق تقسيم وتصنيف العلوم إلى عقلية ونقلية.

3ـ تفاعل الأفكار والحضارات

إن العصور التي تقع فيها المعجزات وتحدث فيها الانتفاضات والثورات هي عصور التحولات الكبرى، ولكل تحول ظروفه وضروراته. إنه ينجم عن مجموع العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والتاريخية السائدة، وهي علاقات متعقدة متشابكة لا يمكن تعقبها في تشعباتها الدقيقة ومساراتها المتعرجة التي تضرب في كل اتجاه وتذهب كل مذهب. فليس من القسط إذن إرجاع كل ظاهرة حضارية جديدة في بيئة من البيئات إلى عوامل خارجية صرف وإهمال العوامل الداخلية التي هي كل شيء في هذه الظاهرة. إذ لا فكرة من الأفكار ترد من الخارج وتسعى ليكون لها سلطان على الناس من الداخل، دون أن يكون لها

(1) ديمتري عوتاس، نفس المرجع السابق، ص 23.

(2) علي عبد الرازق، **الإسلام وأصول الحكم**، دار مكتبة الحياة، بيروت1966، ص 67.

مبرراتها ومقتضياتها الداخلية الموضوعية وما لم يكن لها فيهم وجود ما بالقوة، فالعامل الخارجي إنما يوقظ العوامل الداخلية إن وجدت ويستحثها، ولكنه لا يخلقها. بل إن الأفكار التي تستعار من الخارج دون أن تؤخذ البنية الثقافية والتاريخية بالحسبان من شأنها أن تؤدي إلى القضاء على روح الابتكار، وبالتالي فمصيرها الفشل طبعا.

إن الفلسفة والعلم والحضارة لا تقوم إلا على تراث الأقدمين، ولا يمكن تصورها بدون تراث الأقدمين. ولاغرو في ذلك فهي بناء رفعت لبناته تجارب الأجيال جيلا بعد جيل، لذلك فإن جميع الحضارات تدين بالكثير مما فيها للاقتباس والنقل والاستعارة، ولم يتطاول بناء الفكر والتراث إلا بالأخذ والعطاء.

أجل لقد أقبل العرب على التراث الذي خلفه الهنود والفرس والإغريق في أعقابهم لإنتاج حياتهم العقلية وإنجاب المفكرين والفلاسفة والعلماء وأرباب الرأي والمشورة، فالفلسفة الإسلامية، والعلم العربي لم يخرجا إلى الوجود إلا من الاتصال المباشر بين الإسلام والنزعات الفكرية الإسلامية وبين ثمرات الفكر الأجنبي ومناهج العقل الفلسفي الأجنبي ولاسيما اليوناني. وذلك ينطبق على كل فرع من فروع المعرفة في الإسلام، بل على كل علم من العلوم الدنيا والدين. أجل، لقد بلغ التنوع أقصاه في تفكير المسلمين، فإذا رأيت ثم رأيت مراكز تشع بالعلم والفكر تتناثر في كل مكان، فيها العلم وفيها الفلسفة، وفيها الأدب والفن والتصوف، وفيها التشريع والفقه(1).

إن هذه الروح التي أنجبت الفكر العربي وأثمرت الحضارة الإسلامية ـ مع أن الناس في هذه الحضارة قد تقاتلوا أحيانا سياسيا وعسكريا ـ فقد ظلوا مجتمعا واحدا له مجموعة واحدة من القيم والتزام خلقي واحد. وقد تحاور العرب مع الفرس والهنود على نطاق واسع، وكان لهم أيضا حوار مع الروم، وبعد ذلك مع جيوب الحضارة اللاتينية، وهذا يعني ضمنا أن علينا أن نتعلم تراثنا من جديد، كي نفهم ونفسر تراث الحضارات الأخرى، ونقارنها بحضارتنا وتزيد مخزوننا من الأفكار والثقافات. فلا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، بالفكر سادوا وبالفكر إنما نسود، فلا خلاص لنا إلا بالفكر، فيا ليت شعري فندائي هذا هو صرخة في واد أو نفخة في رماد، لذا قيل:

أسمعت لو ناديت حيا، ولكن لا حياة لمن تنادي.

---

(1) محمد عبد الرحمن مرحبا، نفس المرجع السابق، ص 14.

أشهر العلوم المطلوبة

بدأ المسلمون العمل على تصنيف العلوم منذ القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، مع الكندي الذي يستنتج ويضع تصنيفه على الأساس الأرسطي بين علوم نظرية وعلوم تطبيقية أي مختبرة، وبذلك تضاف المساهمات الإسلامية إلى العلوم القديمة، والعلوم الدينية الميتافيزيقية التي تهتم بالعالم العلوي. وتصنيف الفارابي يعتبر من التصانيف المبكرة التي كان لها أثر حاسم، فالفارابي أثر على معظم مفكري الإسلام المتأخرين بعده، فتصنيفه تبناه مع بعض التغيير كل من ابن سينا والغزالي وابن رشد، ونستطيع أن نلخص تصنيفه للعلوم في هذا الترتيب.

1- **علوم اللغة** ومنها: النحو ـ قواعد اللغة ـ النطق والإملاء ـ الشعر.

2- **المنطق** تقسيم، تعريف وتركيب الأفكار البسيطة، المرتبطة بترتيبات أرسطو وتفاسيره.

3- **العلوم الأصلية** كالهندسة ـ البصريات ـ القياس والموسيقى.

4- **الفيزياء والميتافيزيقا** فالفيزياء تشمل: معرفة الأجسام الطبيعية ـ علم تركيب الأعضاء ـ علم المعادن وعلم الحيوان.

أما الميتافيزيقا تشمل: معرفة العلوم الجزئية والملاحظة ـ فلسفة أرسطو الأولى.

5- **علم المجتمع** القضاء ـ البلاغة والبيان(1).

أما ابن خلدون الذي كان نوعا ما متأخر على الفارابي 14/8، فهو يرى في أصناف العلوم الواقعة في العمران البشري لعهده، فيقول:"اعلم أن العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار، تحصيلا وتعليما، هي على صنفين: صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره، وصنف نقلي يأخذه عمن وضعه، والأول هي العلوم الحكمية الفلسفية، وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره، ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وأنحاء براهينها ووجوه تعليمها، حتى يقفه نظره وبحثه على الصواب من الخطأ فيها، من حيث هوإنسان ذو فكر. والثاني العلوم النقلية الوضعية، وهي كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي. ولا مجال فيها للعقل...وأصل العلوم النقلية كلها، من الكتاب والسنة التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله، وما يتعلق بذلك من العلوم التي تهيؤها للإفادة.

---

(1) Seyyed Hossein Nasr, **Science et savoir en islam**, Sindbad, Paris1979, pp 59,60,61.

ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربي، الذي هو لسان الملة وبه نزل القرآن. وأصناف هذه العلوم النقلية كثيرة، لأن المكلف يجب عليه أن يعرف أحكام الله تعالى المفروضة عليه وعلى أبناء جنسه، وهي مأخوذة من الكتاب والسنة بالنص أو الإجماع أو بالإلحاق، فلابد من النظر في الكتاب: ببيان ألفاظه أولا، وهذا هو علم التفسير، ثم بإسناد نقله وروايته إلى النبي صلى الله عليه وسلم الذي جاء به من عند الله، واختلاف روايات القراء في قراءته، وهذا علم القراءات، ثم بإسناد السنة إلى صاحبها، والكلام في الرواة الناقلين لها، ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ليقع الوثوق بأخبارهم، ويعمل ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك. وهذه هي علوم الحديث. ثم لابد في استنباط هذه الأحكام من أصولها من وجه قانوني، يفيدنا العلم بكيفية هذا الاستنباط، وهذا هو أصول الفقه، وبعد هذا تحصل الثمرة بمعرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين، وهذا هو الفقه. ثم إن التكاليف: منها بدني، ومنها قلبي، وهو المختص بالإيمان وما يجب أن يعتقد مما لايعتقد. وهذه هي العقائد الإيمانية في الذات والصفات وأمور الحشر والنعيم والعذاب والقدر. والحجاج عن هذه بالأدلة العقلية هو علم الكلام، ثم النظر في القرآن والحديث لابد أن تتقدمه العلوم اللسانية، لأنه متوقف عليها وهي أصناف. فمنها علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الأدب، وهذه العلوم النقلية كلها مختصة بالملة الإسلامية وأهلها"(1).

وأما فيما يتعلق بالعلوم العقلية فنجد:

العلوم العددية ويندرج تحتها علم الأرتماتيقي(معرفة خواص الأعداد)، وعلم الحساب، والجبر، والمعاملات والفرائض.

العلوم الهندسية فهناك المساحة، والمناظرة.

علم الهيئة أو علم الفلك.

علم المنطق وهو قوانين يعرف منها الصحيح من الفاسد.

الطبيعيات ويبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون.

علم الطب وهو أحد فروع الطبيعيات. وهي صناعة تنظر في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح.

---

(1) عبد الرحمن بن خلدون، **المقدمة**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثامنة2003، ص 345.

الفلاحة وهي من فروع الطبيعيات. وهي النظر في النبات من حيث تنميته ونشوءه بالسقي والعلاج.

علم الإلهيات وهوعلم ينظر في الوجود المطلق.

علوم السحر والطلسمات، و علم أسرار الحروف.

والآن نريد العودة إلى السؤال الذي طرحناه في عنصر "حركة الترجمة" ولابأس أن نذكر به وهو: لماذا توقف التفكير الفلسفي منذ أواسط القرن الخامس الهجري/الحادي عشر ميلادي؟ وهذا ربما يعود إلى العقود الأولى التي تلت حركة الترجمة، فقد اعتبر أهل المعرفة أن هذه كانت ذات مساقين سمي الأول العلوم الأصيلة أو العلوم النقلية، أما الثاني فسمي العلوم الدخيلة أو العلوم العقلية.

واستمر المؤرخون، قدماء ومحدثين، في هذا السبيل. فلما قوي شأن العلوم الأصيلة وبدا بعض التنافر، وبخاصة في محاولة التوفيق بين الشريعة والفلسفة على يد فلاسفة المسلمين، كان الذي جاء وحيا هو المقبول، وما جاء به البشر هو المرفوض أو، على الأقل، كان مشكوكا في طبيعته. ونحن هنا نؤيد رأي الأستاذ نقولا زيادة الذي يقول:"وقد بدا لي منذ سنوات طويلة أن هذا التقسيم هو الذي خلط الأمور على الناس فتصوروا أن الشريعة خصم للعلم القديم، وبعد أن تتبعت القضية بدا لي أنه يتوجب علينا أن نعتبر وجود ثلاثة مساقات لتطور العلم والمعرفة في الحضارة العربية الإسلامية. وقد أعلنت هذا الرأي في مؤتمر عن الفارابي عقد في بغداد سنة 1975. والمساقات الثلاثة هي: العلوم الشرعية والعلوم الحكمية (الفلسفة) والعلوم التطبيقية (أو النفعية). ولا سبيل لإنكار ذلك. لكن العلوم التطبيقية. الفلك والرياضيات والهندسة والطب والصيدلة والزراعة، وهي علوم عملية ظلت بمنأى عن الخصومة بين المساقين الآخرين ومن هنا تطرق الوهن إلى مجال الفلسفة، وذلك بعد أن سيطرت شؤون الشريعة على الحياة العامة والسياسية. وبذلك لم تعرف الحضارة العربية الإسلامية فكرا فلسفيا متطورا فيما بعد. أما العلوم النفعية، وهي عملية، فقد استمرت لأنها تفيد الجميع، ولا تخالف فقها ولا شرعا... وفي الجهة الأخرى قامت المدارس، قبل النظامية وبعدها، بتدريس العلوم الشرعية، التي تم في نهايتها للتقليديين أن يصوغوا المنهاج العلمي للدراسة الشرعية الرسمية، وقد ضم هذا المنهاج تدريس المنطق وعلى درجة كبيرة من الاهتمام، لأنه سبيل للمناقشة والجدل والحجاج، فهو وسيلة وليس غاية بنفسه. وأحسب أننا إذا

نظرنا إلى تطور المعرفة في هذه المساقات الثلاثة قد يكون أيسر علينا تتبع ما مر في الأزمنة التي جاءت بعد فترة الترجمة.

والعلم كائنا ما كان نوعه، يحتاج إلى مؤسسات تعنى به وتطوره أو تحافظ عليه على الأقل. وهذا ما حدث للعلوم الأصيلة والنفعية وللعلوم الشرعية. أما الفلسفة فلم يكن لها قط مؤسسة تعنى بها وتنميها، أو تدافع عنها على الأقل، فالذي نعرفه أن تعلم الفلسفة كان أمرا شخصيا فرديا، ولم تقم مؤسسة يمكنها أن تحتضنه"(1).

وفي العصر العباسي برزت علوم كانت أكثر طلبا نظرا لحاجة المجتمع إليها، وكذا الحاجة للتأسيس لهذه العلوم حتى تدرس فيما بعد، فنجد في العلوم النقلية الحديث، واللغة العربية وعلم الكلام، فالحديث وعلم الكلام ولدته الحاجة إلى جمع تراث وسنة النبي صلى الله عليه وسلم وكذا لمواجهة أهل الرأي، وعلم الكلام فأساس قيامه لمناظرة أصحاب الأدلة العقلية، أما اللغة العربية فلدفع اللحن الذي لحق باللسان العربي. أما في مجال العلوم العقلية فنجد الطب فقد قال فيه الشافعي رحمه الله:"نظرت في العلوم فإذا أفضل العلوم علمان، علم الأديان، وعلم الأبدان" أي الطب، واستعمله الخلفاء والأمراء، وكان الأطباء مقربين جدا من البلاط، وكذا نجد علم التنجيم أو الفلك فقد استعان به عدة خلفاء من بني العباس وخاصة المنصور مثلا عندما أراد بناء مدينة بغداد.

فوائد وآداب الرحلة والعوامل المساعدة عليها

ما يلاحظ في هذا الصدد أن الظروف المساعدة على الرحلة في طلب العلم كانت متوفرة، منها:

1ـ وحدة الوطن الإسلامي، فقد كان الطالب يسافر في البلاد الإسلامية من مغربها إلى مشرقها.

2ـ مساعدة طلبة العلم وتيسير ظروفهم المعاشية فقد كانوا يجدون في طريقهم بأغلب البلاد التي يمرون بها من يعولهم ويؤويهم ويرحب بهم، فهناك رباطات وزوايا، وعلماء وأهل الخير ممن يتسابقون إلى إعانة طلبة العلم.

3ـ استعدادات الطلبة المادية والنفسية، فهم يخرجون في سبيل التعلم تدفعهم الرغبات الجادة، فيتهيئون لذلك بتخصيص أوقاتهم كلها للعلم.

(1) ديمتري غوتاس، نفس المرجع السابق، ص 23و24و25.

4- يسر الالتحاق بمراكز التعليم، تكفي الرغبة في الحضور لتلقي الدروس.

5- ترحيب العلماء بكل من يفد للأخذ عنهم، حتى أن بعضهم كان يؤوي جماعة من طلبته ويساعدهم في معاشهم.

6- حرية الطالب في الأخذ عمن يريد من الشيوخ والانتقال إلى غيره متى شاء(1).

ويوضح ابن خلدون أهمية الرحلة، ودورها في بناء الشخصية الثقافية للفرد مشيرا إلى أنها طريقة عملية في التعليم، وهي ضرورية في طلب العلم، يقول"إن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون من المذاهب والفضائل: تارة علما وتعليما وإلقاءا، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا. فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها... فالرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال"(2).

فوائد الرحلة وهي فوائد عامة نجملها في:

1- التمكن من الجوانب العلمية وذلك أن الإنسان يتأثر ببيئته ومحيطه، وقد تتحكم فيه المألوفات التي عاش بينها، فإذا رحل إلى أخرى ألفى مشاكل جديدة تبحث، أو أراء جديدة في مسائل سبق له أن درسها، فيتسع أفقه واجتهاده بدراسة الجديد من المسائل أو الجديد من الآراء، وكثيرا ما يؤدي ذلك إلى تغيير أرائه واجتهاداته بعد أن سار عليها زمنا لا يحيد عنها، وهذا الفقه الشافعي برهان ساطع على ذلك، فإن من المعروف المشهور أن للإمام الشافعي مذهبان: المذهب القديم، والمذهب الجديد، والمذهب الجديد يختلف في مسائل جوهرية كثيرة عن القديم، وقد صار إليه الشافعي بعد رحلته إلى العراق.

2- نشر العلم الذي حصله العالم وذلك أن العالم كثيرا ما ينبغ في بلد يضيق عن حمل نبوغه، لعدم توفر الكفاءات أو لقلة اهتمام أهل البلد بهذا الفن أو الاختصاص، فيرحل إلى مدينة أخرى تكون أوسع مجالا للآراء الخطيرة، أو أشد حاجة، فتعظم مكانته ويكثر الانتفاع بحكمته، ولولا الرحلة لما عظم شأنه ولما كثرت ثمرات نبوغه، وهذا الشيخ عزالدين بن عبد السلام أحد الفقهاء التسعة مر عند خروجه من الشام بالكرك فتلقاه صاحبها وسأله الإقامة عنده،

---

(1) وسيلة بلعيد بن حمده، **الرحلة في طلب العلم**،"سرتا"، العدد 03، 1980 مطبعة البعث قسنطينة، الجزائر، ص 88-89.

(2) ابن خلدون، **المقدمة**، ص 464.

فقال له الشيخ:"بلدك صغير عن علمي"، وتوجه إلى القاهرة.

3- اتساع الثقافة العامة وذلك لكثرة احتكاك الإنسان بالجديد عليه من الناس وما لديهم من عادات وثقافة وحكم وأمثال ونوادر، فيتأثر بذلك وينطبع في نفسه حتى تتكون لديه من كل رحلة ولقاء فائدة أو يحفظ حكمة أو نكتة، أو تقع له حادثة طريفة، فيحفظ ذلك كله ويصبح له زادا يجتذب إليه الناس بالحديث عنه، وفي الناس حب التطلع لأخبار غيرهم ومعرفة ما لم يألفوه من أحوالهم، لذلك احتل الرحالون مراكز الصدارة في المجالس واجتذبوا الناس إليهم بما يحكون من أنباء رحلاتهم العلمية،وما يذكرون من أحوال مشايخهم وأخبار أساتذتهم. ومن مشاهداتهم الاجتماعية، ولطائف الحكم وطرائف النكت التي سمعوها، والوقائع العجيبة التي صادفوها.

4- تنمية الفضائل والكمالات في النفس وقد كان هذا غرضا يرحل إليه الراحلون، يقصدون أهل الفضل للتأسي بأحوالهم وصفاتهم، قال الإمام العالم الحافظ الزاهد أحمد بن فرج الاشبيلي في الإمام النووي:"الإمام محيي الدين قد صار إلى ثلاث مراتب، كل مرتبة لو كانت لشخص لشدت إليه الرحال: العلم، والزهد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر".

كما أن الإنسان في الرحلة تتغير مألوفاته وعاداته، فيكتسب بمواجهة ذلك أخلاقا طيبة تغرسها الرحلة في النفس، مثل خلق الصبر لكثرة ما يلاقيه الراحل من متاعب بدنية وألام نفسية لفراق الأحبة، وهذا التلقي من الأكابر للفضائل يفتح رحاب الصدر للاختلاف، حيث يعذر كل واحد الأخر اجتهاداته وأرائه. ولا يتسرع للحط من مخالفه أو الطعن عليه.

5- كسب صداقات جديدة خالصة والصداقة من ألذ ما يتمتع به الإنسان في الدنيا، والرحلة وسيلة نافعة في كسب أصدقاء جدد يتعرف عليهم، ويعرف بهم أهل بلده، ويتحدث عن فضائلهم ومحاسنهم في مجالسه. وغير ذلك من الفوائد يستزيد من تعدادها المجرب ويذوق حلاوتها لما فيها من تجديد في الشخصية، وفي رؤية الحياة: إن السفر كنز العبر

وما أحسن قول الشاعر الحكيم أبي تمام:

طول مقام المرء في الحي مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد.

فإني رأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد.(1)

---

(1) الخطيب البغدادي، **الرحلة في طلب الحديث**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى1975، ص 24...28.

آداب الرحلة

وهي أصول ينبغي مراعاتها حتى تؤتي الرحلة ثمارها وتتحقق أهدافها أيا كان العلم الذي يرحل فيه الطالب، ونجمل لك أهمها فيما يلي:

1- أن يقدم السماع من علماء بلده على الرحلة للآفاق، فهو أيسر وأقل كلفة، وأمكن له في التثبت مما يسمع وتدوينه وضبطه ومراجعة ما يشكل منه، فإذا فرغ من التلقي عن علماء بلده عزم على الرحلة وسلك سبيلها.

2- حسن اختيار أماكن الرحلة، بأن تكون عامرة ببعض العلماء أو الفضلاء ممن يفاد منهم، وكان العلماء يعتنون بذلك ويستشيرون فيه، فعن معمر قال: قال لي أيوب:"إن كنت راحلا إلى أحد فارحل إلى طاووس وإلا فالزم تجارتك".

3- أن يهتم بكثرة المادة العلمية المتلقاة، وكثرة المسموع، ويقدم ذلك على الاستكثار من الأساتذة، قال الحافظ بن الحجر في شرح النخبة:"ثم يرحل فيحصل في الرحلة ما ليس عنده، ويكون اعتناؤه بتكثير المسموع أولى من اعتنائه بتكثير الشيوخ".

4- أن يعتني بالمذاكرة مع المحققين لتمكين التعمق في العلم، وذلك بأن يحضر ما توصل إليه من أراء أو علاج لمشكلات العلم، فيلقيه على أهل التحقيق والدقة، ويعرض عليهم ما وقع له من استشكال فيكسب بذلك أراء جديدة تزيده تمكنا وتعمقا، كما يستكثر الباحث من الرجوع إلى المصادر المكتوبة في المسائل العويصة حتى يحلها، والمصادر الحية(الأساتذة) أهم من الكتب لعلاج المشاكل، لأنها تقدر على تتبع الخواطر ومناقشتها إلى النهاية.

5- مراعاة الآداب العامة في السفر، وهي مطلوبة من كل مسافر خصوصا صاحب الرحلة لطلب العلم، ومن أهمها المداومة على الطاعات والعبادات، والسخاء بالمال، ثم تحمل متاعب السفر والطريق والصبر على الرفاق وغير ذلك من الآداب(1).

---

(1) نفس المرجع السابق، ص 29-30-31.

العلماء المسلمين والرحلة

البيروني

ولد أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني في3 ذي الحجة عام 362ه/ 15 سبتمبر 973م(1)، وأصله من فارس في "بيرون" عاصمة خوارزم(2)، ونشأ البيروني نشأة متواضعة، إذ كان ابنا لأحد التجار الصغار، وقد مات أبوه فاضطرت والدته إلى العمل في جمع الحطب وبيعه لكسب رزقها، وقد ساعدها البيروني في عملها مما أثر في تكوينه وتشكيل ميوله منذ الصغر، فقد شب البيروني عاشقا للطبيعة وهذا دفعه إلى جمع الزهور والنباتات من كل مكان والتعرف على مختلف أنواع النباتات(3). وتقلب في البلاد، فاتسعت معارفه وزادت خبرته، ففي البداية عاش البيروني في مدينة الري حيث تعرف على كبير علماء فلك الدولة، ويدعى الخوجندي وأصبح مساعده في المرصد الفلكي لمدينة الري، ومضت عدة سنوات، وعاد بعدها إلى خوارزم بعد أن استقرت وهدأت بها الأحوال السياسية، لكنه لم يلبث أن قرر الرحيل إلى بخارى وعمره آنذاك ست وعشرون سنة، وفي بخارى كان الملك قد انتقل إلى منصور الثاني، وكان ابن مسكويه هو المسؤول عن المكتبة الضخمة لبخارى، وكان شيخ الأطباء ابن سينا يتردد على هذه المكتبة، وفي بخارى تعرف البيروني على ابن مسكويه وعلى ابن سينا، ولم يطل بقاء البيروني في بخارى إذ سرعان ما نشبت الفتن واحتدمت الصراعات، فسافر البيروني مع صديقه ابن سينا إلى جرجان ونزلا في ضيافة الأمير شمس المعالي، الذي رحب بهما كثيرا، وضمهما إلى مجلس كبار علماء قصره، وفي جرجان تعرف البيروني على العالم العظيم أبوسهل المسيحي والذي تتلمذ على يديه، وظل البيروني في جرجان سبع سنوات، ثم رحل بعد ذلك إلى الجرجانية العاصمة الجديدة للدولة الخوارزمية بعد أن أصبح المأمون أميرها وقد رحب المأمون كثيرا بعودة البيروني، وأصبح مستشاره في الكثير من الأمور السياسية للدولة، ورغم انشغال البيروني بالسياسة فإنه لم يهمل أبحاثه العلمية، فهذه الظروف التي مر بها جعلته يطلع على علوم وثقافات متعددة وأن يفيد من أسفاره الكثيرة، فقد تمكن من إتقان عدة لغات، كالفارسية، العربية، السنسكريتية واليونانية،

---

(1) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، **موسوعة العلماء والأدباء العرب والمسلمين**، دار الجيل، بيروت2005، الجزء الرابع ص 274.

(2) محمد ألتونجي، **مشاهير العالم(الموسوعة الثقافية العامة)**، دار الجيل، بيروت1999، الجزء الأول ص 40.

(3) عاطف محمد، **سلسلة أشهر العلماء في التاريخ**، دار اللطائف للنشر والتوزيع، القاهرة2003، ص 04.

ولم يهنأ البيروني طويلا بالعيش في بلاط الأمير المأمون، فقد دبت الفتن والصراعات في الدولة، وهرب سائر العلماء، فأرسل السلطان محمود الغزنوي جيشه إلى بلاد المأمون لتأديب الثوار، وأمر بقية العلماء بالسفر إلى جيفور وحدد إقامتهم، وقتل بعضهم ولكن البيروني نجا من هذه المحنة بفضل علمه ومكانته وشهرته، وبعد أن شفع له أحد وزراء السلطان، وظل البيروني طوال ثلاث سنوات في جيفور يكتب ويبحث، ويقوم بأرصاده الفلكية ويتعلم اللغة السنسكريتية، ويجمع الأخبار عن أهل الهند، فصحبه السلطان الغزنوي معه إلى الهند أثناء فتوحاته، وأخبره برغبته في أن يكتب له كل ما يعرفه عن الهند وأهلها وتاريخها وأرضها وثقافاتها وأديانها، حتى تتمكن الجيوش الإسلامية من نشر الإسلام في الهند، فتجول في الهند عشرين عاما وكان نتاج ذلك كتابه الموسوم"تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة". فقد كان البيروني رجل علم وهذا يظهر جليا من خلال مراسلاته لابن سينا فأسئلته كانت علمية(1)، وفيلسوفا ورياضيا وفلكيا وجغرافيا ورحالة، وعرف بحبه للمعرفة إلى جانب خلق التسامح وله قول مأثور هو"أن الله عالم كل شيء لا يسامح بالجهل"(2).

وقد عرف البيروني في العصور الوسطى في الغرب باسم **أليبورون** Aliboron(3)، فقد وصفه المستشرق الألماني ساخاو الذي ترجم بعض أعمال البيروني إلى الألمانية بقوله "البيروني أعظم عقلية في التاريخ"، وقد كتب عنه أغلب مؤرخي العلوم المحدثين مثل جورج سارتون وكارل نللينو وماريهوف وآرثر بوب وشاخت وقيل"أن القرن الحادي عشر هو عصر البيروني"

آثاره

وضع البيروني عدد ضخما من المصنفات يتجاوز عددها المائة والعشرين، منها:

الآثار الباقية عن القرون الخالية، الذي حققه سخاو عام 1878، وتحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، وفيه درس البيروني لغات أهل الهند وعاداتهم وتقاليدهم، وترجمه سخاو إلى الانجليزية وطبع في لندن سنة 1888. وكتاب القانون المسعودي في الهيئة

(1) Bouamrane, Chikh/ Luis, Gardet, **Panorama de la pensée islamique**, Sindbad, deuxième édition, Paris1984, page 244.

(2) محمد فارس، **موسوعة علماء العرب والمسلمين**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن1993، ص 101.

(3) المهندس أسامة حوحو، **مآثر العلماء**، مؤسسة بحسون للنشر والتوزيع، بيروت1994، ص 209.

و النجوم، وكتاب الجماهر في معرفة الجواهر نشره إدوارد سخاو في لندن عام 1887، رسائل البيروني، كتاب الصيدلة، كتاب جداول الدقائق...الخ. وتوفي البيروني بغزنة في ما قيل أواخر ذي الحجة 442ه/ ابريل 1051م.

البيروني سابر أغوار الهند

كانت الهند وما زالت مكاناً مجهولاً، كل شيء فيها يوحي بالأسطورة والغموض، وربما أول اكتشاف لأغوارها بالعربية، قبل أبي الريحان البيروني، هو ما قرأ ابن النديم بخط الفيلسوف يعقوب بن إسحاق الكندي (ت نحو 260هـ) حول أديان الهند ومذاهبها، كتبه العام 249هـ. كان الكتاب حكاية رجل بعثه وزير هارون الرشيد يحيى بن خالد البرمكي إلى الهند "ليأتيه بعقاقير موجودة في بلادهم، وأن يكتب له أديانهم، فكتب له هذا الكتاب" (الفهرست). وبطبيعة الحال، لا يطلب توثيق أديان ومذاهب بلاد معقدة التضاريس البشرية مثل الهند إلا أن يكون متكلماً أو له فضل علم. فهناك روايات تحدثت عن بعثة المتكلم معمر بن عباد السلمي من قبل الرشيد أو وزيره لمناظرة قوم من السمنية بالهند، وربما كان الرجل الذي كتب عنه الكندي هو ذلك المبعوث.

أما سابر أغوار الهند والملم بتضاريسها الدينية والفكرية فهو أبو الريحان البيروني أو الخوارزمي (ت442هـ)، الذي دخل الهند وتعلم لسانها واقتبس من علومها، فصنف فيها "تحقيق ما للهند من مقولة"، وترجم من لغتها كتابين، قال: "نقلت إلى العربي كتابين، أحدهما في المبادئ، وصفه الموجودات واسمه سانك، والآخر تخليص النفس من رباط البدن، ويعرف بباتنجل". ويبدو أنه استعمل مترجمين في نقل الكتب، جاء ذلك بقوله: "فإن المعبرين لي بالترجمة كانوا ذوي قوة على اللغة، وغير معروفين بالخيانة" (تحقيق ما للهند). ومما نقل عنهم كانت قصة الخلق، وهي: "إن الماء كان قبل كل شيء، وموضع العالم ممتلئ به، ولا محالة أن ذلك في أول نهار النفس، وابتدأ التصور والتركيب، قالوا: وإن الماء أزبد بالتموج، فبرز منه شيء أبيض خلق الباري منه بيضة براهم، فمنهم مَنْ يقول: إنها انفلقت وخرج منها براهم، وصار السماء من أحد نصفيها والأرض الأخرى". وكم تكرر هذا التصور في نشأة الكون عند البابليين واليونان، ولا ندري هل سبقوا هؤلاء الهنود أم الهنود هم السابقون! وربما انفرد أبو الريحان البيروني، من غير سبر أغوار الهند وتعلم لسانها، بموقف متسامح وعلمي إزاء أهل الأديان الأخرى، فنجده لا يدخل كتبه ما يسيء لهم إلا ان تولاه بالنقد والتصحيح،

وهذا فضل في التسامح الديني لمؤرخ وعالم قلما نجده عنده المؤرخين والعلماء الآخرين. ففي (القانون المسعودي) نجده يعلل الثالوث عند المسيحيين، مثلما سمعه من أحبارهم، قال: "الإشارة نحو ما نعرفه منها، ونقول: إن الأب عندهم غاية التعلم، كما أن الابن غاية الاختصاص والتكريم، وليسوا يذهبون فيه إلى معنى الإيلاد الحيواني، وربما أشاروا إلى التولد الكائن على وجه الإفاضة والاقتباس، وحال الألفاظ في اللغات المتباينة أدت إلى تباين العقائد وتنافر أهلها". ونجده يرد في (الآثار الباقية عن القرون الخالية) اتهام ابن سنكلا النصراني للصابئة في أمور منافية لوداعتهم وإيمانهم العميق، مثل اتهامه لهم بذبح أولادهم وتقديمهم قرابين للكواكب، قال: فحشي "كتابه بالكذب والأباطيل ... ونحن لا نعلم منهم إلا أنهم أُناس يوحدون الله وينزهونه عن القبائح، ويصفونه بالسلب لا الإيجاب كقولهم لا يُحدُّ ولا يُرى ولا يُظلم ولا يجور، ويسمونه بالأسماء الحسنى مجازاً". وما قاله البيروني ينطبق اليوم على المندائيين الصابئة بالعراق، فهم يوحدون الله وينزهونه ويعبدونه عبادة شاقة، ورغم ذلك هناك مَنْ يؤذيهم، ولم يحاول الارتقاء والنظر إلى عباد الله من غير دينه أو مذهبه بتسامح سبقه إليه البيروني بألف عام.

لقد ميز أبو الريحان، كمؤرخ عدول، بين المسموع والمرئي، قال: "ليس الخبر كالعيان، لأن العيان هو إدراك عين الناظر المنظور إليه في زمان وجوده، وفي مكان حصوله، ولولا لواحق آفات بالخبر لكانت فضيلته تبين على العيان والنظر لقصوهما على الوجود الذي لا يتعدى آنات الزمان". تبرز عظمة البيروني أو الخوارزمي في موقفه أولاً من الحقيقة، وثانياً في باعه العلمي، الذي وصلنا كاملاً تقريباً عبر كتبه، التي عدَّ ابن أبي أصيبعة منها، من غير الكتب التي وردت في السياق، (الجماهر في الجواهر)، وكتاب (الصيدلية في الطب)، و(مقاليد الهيئة)، و(استعمال الاصطراب الكري) و(التفهيم في صناعة التنجيم) وغيرها.

البخاري

نهض بالحديث النبوي دراية ورواية رجال نابهون من العرب أو من أصول غير عربية، لكن الإسلام رفع أصلهم، وأعلى العلم ذكرهم، وبوأهم ما يستحقون من منزلة وتقدير؛ فهم شيوخ الحديث وأئمة الهدى، ومراجع الناس فيما يستفتون.

وكان الإمام البخاري واحدًا من هؤلاء، انتهت إليه رئاسة الحديث في عصره، وبلغ تصنيف الحديث القمة على يديه، ورُزِق كتابه الجامع الصحيح إجماع الأمة بأنه أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى، واحتل مكانته في القلوب؛ فكان العلماء يقرءونه في المساجد كما تتلى المصاحف، وأوتي مؤلفه من نباهة الصيت مثلما أوتي أصحاب المذاهب الأربعة، وكبار القادة والفاتحين.

هو إمام المحدثين وشيخ الحفاظ(1)، الذي لا يجارى في حفظه للحديث(2)، محمد بن إسماعيل بن المغيرة بن ردزيه البخاري الجعفي، ولد ببخارى من سلالة فارسية بعد صلاة الجمعة في 13 شوال 199ه/ 4 من أغسطس 810م، واستقبل حياته في وسط أسرة كريمة ذات دين ومال؛ فكان أبوه عالمًا محدِّثًا، عُرِف بين الناس بحسن الخلق وسعة العلم، وكانت أمه امرأة صالحة، لا تقل ورعًا وصلاحًا عن أبيه. فحفظ القرآن الكريم وألم بالعربية وهو صبي، وحبب إليه سماع الحديث(3)، فكان أول سماعه من علماء بخارى، فقد كانت آنذاك من مراكز العلم تمتلئ بحلقات المحدثين والفقهاء، نشأ البخاري يتيمًا؛ فقد تُوفِّيَ أبوه مبكرًا، فلم يهنأ بمولوده الصغير، لكن زوجته تعهدت وليدها بالرعاية والتعليم، تدفعه إلى العلم وتحببه فيه، وتزين له الطاعات؛ فشب مستقيم النفس، عفَّ اللسان، كريم الخلق، مقبلا على الطاعة، وما كاد يتم حفظ القرآن حتى بدأ يتردد على حلقات المحدثين. وفي هذه السنِّ المبكرة مالت نفسه إلى الحديث، ووجد حلاوته في قلبه؛ فأقبل عليه محبًا، حتى إنه ليقول عن هذه الفترة: "ألهمت حفظ الحديث وأنا في المكتب (الكُتّاب)، ولي عشر سنوات أو أقل". كانت حافظته قوية، وذاكرته لاقطة لا تُضيّع شيئًا مما يُسمع أو يُقرأ، وما كاد يبلغ

---

(1) محمد محمد أبو زهو، **الحديث والمحدثون**، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان1984، ص 353.

(2) شاهر ذيب أبو شريخ، **موسوعة عباقرة الإسلام**، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن2004، ص 332.

(3) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، **موسوعة العلماء والأدباء العرب والمسلمين**، دار الجيل، بيروت2005، الجزء الرابع ص 212.

السادسة عشرة من عمره حتى حفظ كتب ابن المبارك، ووكيع، وغيرها من كتب الأئمة المحـــــدثين، حتـــــى قـــــالوا لـــــم تخـــــرج خرســـــان مثلـــــه.

الرحلة في طلب الحديث

قام برحلة طويلة في طلب العلم(1)، فشدَّ الرحال إلى طلب العلم، وخرج إلى الحج وفي صحبته أمه وأخوه حتى إذا أدوا جميعًا مناسك الحج؛ تخلف البخاري لطلب الحديث والأخذ عن الشيوخ، ورجعت أمه وأخوه إلى بخارى، وكان البخاري آنذاك شابًّا صغيرًا في السادسة عشـــــــــــــرة مـــــــــــــن عمـــــــــــــره.

وآثر البخاري أن يجعل من الحرمين الشريفين طليعة لرحلاته؛ فظل بهما ستة أعوام ينهل من شيوخهما، ثم انطلق بعدها ينتقل بين حواضر العالم الإسلامي؛ يجالس العلماء ويحاور المحدِّثين، ويجمع الحديث، ويعقد مجالس للتحديث، ويتكبد مشاق السفر والانتقال، ولم يترك حاضرة من حواضر العلم إلا نزل بها وروى عن شيوخها، وربما حل بها مرات عديدة، يغادرها ثم يعود إليها مرة أخرى؛ فنزل في مكة والمدينة وبغداد وواسط والبصرة والكوفة، ودمشق وقيسارية وعسقلان، وخراسان ونيسابور ومرو، وهراة ومصر وغيرها... وتنقل في البلاد، قال السهل ابن السري: قال البخاري: "دخلت إلى الشام ومصر والجزيرة مرتين وإلى البصرة أربع مرات وأقمت بالحجاز ستة أعوام ولا أحصي كم دخلت إلى الكوفة وبغـــــــــــــداد مـــــــــــــع المحـــــــــــــدثين"(2).

آثـــا

من آثاره الجامع الصحيح أو صحيح البخاري وهو أهم مؤلفاته اختار أحاديثه من عشرات الآلاف من الأحاديث الصحيحة في السند، وله كتابان في رجال الحديث ورواته هما"التاريخ الكبيـــر" و"التـــاريخ الصـــغير"، ولـــه كتـــاب حـــديث صـــغير هـــو"الأدب المفـــرد". شهد العلماء والمعاصرون للبخاري بالسبق في الحديث، ولقبوه بأمير المؤمنين في الحديث، وهي أعظم درجة ينالها عالم في الحديث النبوي، وأثنوا عليه ثناء عطرا ...

(1) **الموسوعة العربية العالمية**، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثاني1999، الجزء الرابع، ص 239.

(2) محمد محمد أبو زهو، نفس المرجع السابق، ص 354.

يقول ابن خزيمة"ما تحت أديم السماء أعلم بالحديث من محمد بن إسماعيل البخاري". وقال قتيبة بن سعيد"جالست الفقهاء والعباد والزهاد، فما رأيت منذ عقلت مثل محمد بن إسماعيل، وهو في زمانه كعمر في الصحابة" وقبله تلميذه النجيب مسلم بن الحجاج صاحب صحيح مسلم بين عينيه، وقال له"دعني أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين، وسيد المحدثين، وطبيب الحديث في علله". وعلى الرغم من مكانة البخاري وعظم قدره في الحديث فإن ذلك لم يشفع له عند والي بخارى، فأساء إليه، ونفاه إلى "خرتنك"، فظل بها حتى لقي الله في 30 رمضان 256ه/31 أغسطس 869م، ليلة عيد الفطر المبارك.

الفصل الرابع

عصر النهضة والبعثات العلمية

مقدمة

لم يكن الأوروبيون وحدهم في القرن التاسع عشر مولعين بالسفر إلى الشرق. بل ارتفع أيضاً عدد المسافرين من الشرق إلى أوروبا. وفي تلك الحقبة كان السفر إلى أوروبا يعني عادةً السفر إلى باريس، التي كان يعتبرها في تلك الأيام كل من العرب والأوروبين "عاصمة القرن التاسع عشر".

كما تنوّعت أهداف الرحلات وأسبابها. في البدء كان يُرسل من مصر شبّان ضمن بعثات دراسية، وكان الآخرون يدعون كمعلمي لغة أو مترجمين، وفيما بعد أصبح الهدف من السفر إلى أوروبا زيارة معرض عالمي ما أو مؤتمر للمستشرقين. وقد قامت مجموعة من هؤلاء الرحالة بتدوين تجاربهم وانطباعاتهم.

غالبًا ما كانت تهدف هذه التقارير، إلى تمكين أبناء البلاد من الاطلاع على المعارف المكتسبة في أوروبا والحث على القيام بالمثل والمساهمة من خلال ذلك في دفع عجلة التطور في البلاد. وكان الشيخ الأزهري المصري رفاعة رافع الطهطاوي (1801-1873) قد ألف أشهر الكتب وأقدمها بين كتب الرحلات هذه وهو الإبريز في تلخيص باريز.

كانت مصر تمر في مرحلة تحوّل. إذ وجد المصريون أنفسهم، منذ حملة نابليون على مصر في عام 1798 وما تلتها من فترة احتلال استمرّت ثلاثة أعوام، يواجهون تفوّق الأوروبيين البارز عليهم - وخصوصا في المجال العسكري-التقني والذي كان لا بدّ من تجاوزه. فهكذا كانت تقضي التخطيطات المصرية، بأن يستبدل الخبراء الفرنسيين الذين جلبوا للعمل في مصر بالمصريين الذين درسوا في باريس. وعلاوة على ذلك بدت فرنسا باعتبارها دولة تُطبّق فيها العلمانية إلى أبعد الحدود، أقل "خطورة" بالنسبة للمسلمين.

محاولة الرجوع ومحاكاة التراث

كما سبق وطرحنا السؤال حول عدم مواصلة الفكر والفلسفة في التواجد في المجتمع العربي الإسلامي بعد حركة الترجمة الكبيرة التي شهدتها الإمبراطورية العباسية، نريد صياغة نفس التساؤل حول قلة وتناقص الرحلة في طلب العلم بعد هذا العصر وخاصة بعد عصر التدوين، إلا رحلات قليلة، وهنا نود طرح فكرة هي أن في التجربة الثقافية العربية يجب أن نضع السياسة مكان العلم في التجربتين اليونانية والأوروبية الحديثة، وبعبارة أخرى إن الدور الذي قام به العلم عند اليونان في أوروبا الحديثة في مسألة الفكر الفلسفي والديني ومخاصمته وفك بناءاته وإعادة تركيبها ...الخ، قد قامت به السياسة في الثقافة العربية الإسلامية. فاللحظات الحاسمة في تطور الفكر العربي الإسلامي لم يكن يحددها العلم، وإنما كانت تحددها السياسة، فلقد ظل العلم العربي، علم الخوارزمي والبيروني وابن الهيثم وابن النفيس وغيرهم، خارج مسرح الحركة الثقافية العربية فلم يشارك في تغذية العقل العربي ولا في تجديد قوالبه وفحص قبلياته ومسبقاته(1).

وظل الأمر على حاله إلى نهاية القرن 18 وبداية القرن 19، وتاريخ بداية النهضة العربية خاصة بعد حملة نابليون على مصر(1798 - 1801) والالتقاء بين الغرب والشرق في إطار جغرافي عربي، بدأت تلك الصدمة الناجمة عن حالة الانحطاط تتكشف وموقف الذهول والانبهار بالغرب يبنى، من خلال أعمال المؤرخين لهذه الحملة، ونلاحظ هنا عودة السياسي ليقوم هو بالعملية الثقافية العلمية، في شخص محمد علي وإصلاحاته السياسية في مصر ومحاولة محاكاة الغرب واللحاق بالركب، وكان له ذلك، وهنا نرى بروز ظاهرة الرحلة ولكن في شكل أكثر رسمية وتنظيم من خلال بعثات علمية إلى أوروبا، بعد إدراك ذلك الفارق الحاصل على مستوى التنظيم السياسي والفكري والمعرفي بين الغرب الأوروبي والشرق العربي الإسلامي، وبدأ الاستلهام من التراث حول ذهنية الحوار بين المجتمعات والحضارات والتلاقح الفكري والثقافي وصحوة العقل، وحاول محمد علي نقل هذا الحوار وأصول الحداثة والنهضة الأوروبية إلى مصر وذلك لا يتم إلا بإرسال بعثات إلى أوروبا وخاصة فرنسا وانجلترا من أجل دراسة مقومات الحداثة الأوروبية ونقل بذورها إلى المشرق وستكون مصر

---

(1) محمد عابد الجابري، نفس المرجع السابق، ص 346-347.

من يحتضن هذه العملية الحداثية للمجتمعات العربية، والرابط هي الرحلة في طلب العلم والتي أخذت منحى آخر أو مصطلح جديد يناسب تلك الفترة التاريخية وهو البعثات العلمية التي تكفلت بها الدولة في شتى أنحاءها.

فتح باب الاجتهاد

تندرج النهضة في إطار حركة التجديد العصري التي عرفتها بعض البلدان العربية في القرن التاسع عشر إثر احتكاكها مع العالم المصنع. فاكتشفت حينئذ النخبة العربية أوروبا الغربية وأعجب بعض المفكرين والسياسيين العرب بما أنجزته من تقدم في التنظيمات الاقتصادية والعلوم التقنية، وبدأ السؤال الذي لا مناص منه يفرض نفسه: لماذا تأخر العرب وتقدم الأوروبيون؟ ويزداد هذا السؤال إلحاحا في ظرفية تميزت بتحديات الغرب وتهديده لسيادة البلدان العربية واستقلالها. فكان لابد إذن لمواجهة هذه التحديات والحفاظ على الاستقلال والكرامة من تشخيص تخلف العرب واستنباط الحلول الملائمة لتحقيق النهضة العربية والالتحاق بركب أوروبا الغربية. مما يستوجب القضاء على أسباب التخلف والانحطاط وذلك بفتح باب الاجتهاد ونبذ التقليد والنقل وإعمال العقل والنقد والتفتح على الحضارة الأوروبية الحديثة والاقتداء بما أنجزته في الميادين السياسية والاقتصادية والعلمية والتقنية والثقافية وتنظيم الملائمة بين الإسلام ومقتضيات العصر.

يعتبر الاجتهاد أساس تطور المجتمع الإسلامي وغلق باب الاجتهاد سببا أساسيا في ركوده وانحطاطه، وفعلا فقد ازدهر المجتمع العربي الإسلامي حينما كان الاجتهاد سائدا وركد إثر غلق باب الاجتهاد. ففي عصره الذهبي أي خلال القرنين الثامن والتاسع للميلاد، ظهرت تفسيرات عديدة للشريعة الإسلامية وبرزت المذاهب السنية الأربعة (الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية) واعتبر المسلمون أراء الفقهاء المختلفة طرقا متعددة كلها تؤدي إلى الحقيقة. فازدهرت الحياة الفكرية بصفة عامة إذ استطاع الإسلام في هذا الجو المتسم بالاجتهاد والتسامح التأقلم مع الحضارات الأخرى واستيعاب الكثير منها والمساهمة في إثراء الفكر الإنساني. وبحلول القرن العاشر أصبحت المذاهب الأربعة للشريعة، رغم اختلافها من الثوابت لكل زمان ومكان. واعتبر كل خروج عنها وتكييفها مع مقتضيات العصر بدعة. وبذلك تقلص الاجتهاد والتفكير الحر وإعمال العقل ليحل محله شيئا فشيئا التقليد والنقل.

وكانت النتيجة جمود التفكير الإسلامي وبالتالي ركود الشريعة وكذلك سائر العلوم وانحطاط العالم العربي الإسلامي. ففتح باب الاجتهاد يمثل إذن شرطا ضروريا للخروج من الحالة التي أصبح عليها العرب.

وقد برز الاحتجاج ضد التقليد في بداية الأمر في إطار ديني بحث وذلك من جانب بعض الفقهاء كالفقيه الحنبلي ابن تيمية الذي ناد بحق الاجتهاد في تفسير الشريعة الإسلامية معتبرا أن أخطاء الأجيال السابقة في هذا الميدان لا تلزم الأجيال التي تلتها وأنه من الواجب تطهير الإسلام من جميع البدع والشوائب والممارسات التي بعدت به عن صفائه الأصلي، وذهب ابن تيمية إلى نقد المذاهب الأربعة على ضوء ما ورد في القرآن والسنة وبذلك ساهم في فتح باب الاجتهاد. وكان ابن تيمية بدون منازع مرجعا أساسيا لحركة الإحياء السلفي التي برزت في الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر بزعامة محمد بن عبد الوهاب(1).

غير أن تيار التجديد العصري لم يحصر الاجتهاد في القرآن والسنة بل اعتمده في جميع الأمور مع فهم الدين فهما عقلانيا والعمل على التطور بالشريعة الإسلامية لملائمتها مع متطلبات العصر، والتفتح على الحضارة الحديثة. وقد كان لتسرب أوروبا الغربية إلى بعض البلدان العربية منذ أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وكذا اطلاع أبناء البلدان العربية إلى ما وصلت إلية أوروبا من خلال المشاهدات التي قاموا بها خلال البعثات العلمية كل هذا كان له أثره في بروز هذا التيار الإصلاحي ونموه(2).

التراث وإشكالية النهضة

ليس من السهل، بل لعله من غير الممكن أيضا، تحديد تاريخ ظهور مسألة التراث في الخطاب العربي، وتلك ظاهرة تنسحب على جميع المسائل التي عرفها مسار الثقافة العربية خصوصا عندما يتعلق الأمر بنقل مسألة من معناها اللغوي التداولي إلى معنى إشكالي فكري مغاير له(3).

يمكن القول مبدئيا أن نوع التصور الذي حمله رواد الفكر في القرن التاسع عشر لمشروع "النهضة" كان سببا في ظهور مشكلة التراث، إذ بدلا من أن ينطلق هؤلاء الرواد في تشييد

---

(1) علي المحجوبي، **النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر**، سراس للنشر، تونس1999، ص 11.

(2) نفس الرجع، ص 12.

(3) عبد المجيد بوقربة، **الحداثة والتراث**، دار الطليعة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى1993، ص 26.

حلمهم النهضوي من الحاضر ومكوناته الفعلية، راحوا يتصورون النهضة إما في القفز على الماضي وذلك بتخريج الرجل العربي العصري الذي لا يرجع تاريخه إلى أكثر من خمسمائة سنة من التاريخ الأوروبي، وإما في الاعتبار القائل بأن لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، إذا فكلا التصورين على الرغم من الاختلاف الظاهر بينهما، كان في حقيقة الأمر يصدر عن المنطق نفسه الذي يعتبر النهضة مشروعا للماضي سواء من أجل إحيائه أو إلغائه. أما الحاضر ومستجداته فقد ظل يكتسي في غالب الأحيان صورة الغياب الكلي، وبالتالي كانت نتيجة هذا التصور: استمرار القديم لا في أحشاء الجديد يغنيه ويؤصله، بل استمراره إلى جنبه يضايقه ويكبله(1).

وهذا ما يصدق على الرحلة إذ أن معظم البعثات العلمية التي أرسلت إلى أوروبا آنذاك باعتبارها مهد الحضارة ومسار النهضة، فهذه الإطارات قد انبهرت بما هو موجود في أوروبا ووقفت منه موقف إعجاب وذهول، وهذا ما فوت عليها عدم نقده وتحليل مضمون التطور الحاصل في هذا المجتمع. والسلبي في الأمر أنهم حاولوا زرع نفس الفكر وخلق نفس المجتمع في بيئة غير بيئته وهذه هي عملية الزرع الفاسدة إن صح القول التي أثمرت فشل مشروع النهضة العربية لأن هؤلاء الرواد لم يسمحوا للمجتمع أن يعبر هو عن نفسه، وذلك بأن يتطور طبيعيا وأن يكون طرفا فيها.

2- إصلاحات محمد علي في مصر والبعثات العلمية

لقد لعبت مصر دورا طلائعيا في النهضة العربية لأنها كانت أول بلد عربي يتعرض للغزو الأوروبي وذلك منذ حملة نابليون في أواخر القرن الثامن عشر. فخرجت حينئذ من العزلة التي عاشت فيها لمدة ثلاثة قرون منذ أواخر القرن الخامس عشر أي منذ الاكتشافات الكبرى وتحويل الطريق التجارية العالمية من البحر المتوسط والشرق الأدنى إلى المحيطات والعالم الجديد، وشاهد المصريون في السنوات الثلاث (1798-1801) التي قضاها نابليون بونابرت في بلادهم ما جعلهم يذهلون من أمر هذا القائد(2)، الذي جاء بكل مرافق الحياة.

واحتكت مصر عنوة بأوروبا وأصبحت بالرغم عنها ميدانا للمؤثرات الأوروبية الحديثة خصوصا وأن نابليون كان مرفوقا بثلة من العلماء قدموا لدراسة الوضع بمصر ومنطقة

(1) نفس المرجع، ص 27.

(2) ضيف الله محمد الأخضر، **محاضرات في النهضة العربية الحديثة**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر1981، ص 23.

الشرق الأوسط. فلا غرو أن يكون إذن لحملة نابليون وتجديد الاحتكاك بأوروبا الأثر الكبير على تطور مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر حيث عرفت تغييرا سريعا في كل من الميادين العسكرية والاقتصادية والإدارية والتربوية والثقافية(1).

محمد علي مؤ سس مصر الحديثة

والي مصر من 1805 إلى 1848، مؤسس الأسرة العلوية التي حكمت من 1805 إلى 1953، ظهرت في عهده مصر الحديثة.

ولد في قوله في مقدونيا سنة 1769، (توفي عام 1849)، كان أبوه إبراهيم أغا رئيس حرس الطرق في بلده، وتوفي ومحمد كان لا يزال صغير السن. أدخله حاكم المدينة في الجندية، ثم احترف تجارة التبغ. انخرط في الحملة العثمانية على مصر التي كانت متحالفة مع الانجليز في معركة أبوقير (1799). ثم انتظم في كتيبة ألبانية أرسلت إلى مصر في 1801. أظهر إقداما درج به سريعا إلى رتبة لواء. بعد رحيل الفرنسيين أدرك أن السلطة في مصر مطمع أطراف ثلاثة: الأتراك، المماليك، والانجليز. وأدرك ما لم تدركه هذه الأطراف، وهو أن الحركة الشعبية المصرية- وتمثلها الطبقة الوسطى الصاعدة- بزعامة عمر مكرم صارت عنصرا أساسيا مؤثرا. فعمل على التقرب من عمر مكرم، أبرز زعماء هذه الحركة، حتى أنه كان يناديه دائما ب"والدي". وأخذ يعلن في وجود عمر مكرم ولكل من كان يلتقيه من الزعماء والوجهاء المصريين عن نيته اتخاذ مصر وطنا له ولذريته، وتحويلها إلى دولة ذات شأن كبير. فكفل له ذلك أن طلب المصريين إلى السلطان تولية محمد علي عليهم. فولاه السلطان في 1805(2).

الإصلاحات العسكرية

وهذا يستوجب أولا وبالذات إصلاحات عسكرية قصد تكوين جيش عصري على منوال الجيوش الأوروبية يكون قادرا على حماية استقلال البلاد وضمان سيادتها وتحقيق طموحات محمد علي باشا وأهدافه التوسعية. غير أن ضمان استقلال البلاد ومناعتها يتطلب خصوصا في الميدان العسكري إطارات مصرية تكون قادرة على تعويض الفنيين الأجانب. ومن أجل ذلك أسس محمد علي العديد من المدارس الحربية الحديثة لتكوين هذه الإطارات على منوال

(1) علي المحجوبي، نفس المرجع السابق، ص 18.

(2) مسعود الخوند، **الموسوعة التاريخية الجغرافية**، الشركة العالمية للموسوعات، لبنان، الطبعة الثالثة2005، الجزء 18، ص 225.

القوى الأوروبية. فكان ذلك شأن مدرسة المشاة في مدينة دمياط ومدرسة الخيالة بالجيزة ومدرسة المدفعية في طرة ومدرسة أركان الحرب بالقاهرة. وانتدب أساتذة من أوروبا الغربية لتكوين الإطارات العسكرية في هذه المدارس. كما أرسل محمد علي عدة بعثات مصرية إلى أوروبا للتخصص في مختلف الميادين العسكرية لكي يعوضوا الأجانب في تدريب الجيش وتكوين الإطارات الحديثة(1).

الإصلاحات الاقتصادية

كان لابد لتأمين حاجيات الجيش والأسطول من تموين ولباس وعتاد ولتأسيس دولة منيعة بأتم معنى الكلمة من النهوض باقتصاد البلاد. فقد اقتبس بقدر الإمكان وسائل التنمية الأوروبية، ففي الميدان الزراعي أقام السدود وأحكم توزيع المياه موكلا ذلك إلى خبراء ومهندسين وقع تعيينهم في جميع المقاطعات الإدارية. وقد وقع في عصر محمد علي باشا إنجاز 36 قناة و15 جسر و23 سد على نهر النيل، وكانت الغاية من هذه الانجازات، علاوة على تحديث القطاع الزراعي، الزيادة في المساحات المزروعة وبالتالي تنمية الإنتاج.

وإلى جانب تحديث الزراعة وتوفير الإطارات التقنية لهذا القطاع الحيوي اهتمت الدولة كذلك بالصناعات طبقا للمناهج الأوروبية الحديثة، فشهدت مصر في عهد محمد علي نهضة صناعية كانت في بداية الأمر تخضع إلى ضرورات الدفاع وذلك بإرساء مصانع للأسلحة والسفن والعربات، وعلاوة على الصناعات العسكرية وقع تركيز صناعات مدنية خصوصا في قطاع النسيج. فتم إنشاء ثلاثين مصنعا لغزل ونسج القطن وثلاثة معامل لنسج الصوف ومعملا للحرير وعدة معامل للكتان. كما وقع إنشاء مصانع للسكر وسبعة عشر للمدبغة وكذلك مصنع للورق لسد حاجيات قطاع الطباعة والنشر الذي تطور في عصر محمد علي باشا(2).

إصلاح التعليم

وقد اعتمد محمد علي باشا في بداية الأمر للقيام بكل هذه الإصلاحات على خبراء وفنيين أوروبيين. غير أن ضمان استقلال البلاد كان يستوجب تكوين إطارات وطنية عصرية لتحقيق الاكتفاء الذاتي في جميع المجالات. وقد دفعت هذه الحاجة، علاوة على إرسال عدة بعثات مصرية إلى أوروبا الغربية للتخصص في مختلف الميادين العسكرية والمدنية، إلى

(1) علي المحجوبي، نفس المرجع السابق، ص 19.

(2) نفس الرجع، ص 20-21.

إرساء تعليم يعتمد برامج ومناهج حديثة على غرار البلدان الأوروبية. ذلك أن مجال التعليم السائد بمصر في بداية عهد محمد علي كان ضيقا جدا، فهو يكاد يقتصر على الدراسات المتعلقة بالدين الاسلامي وباللغة العربية باعتبارها لغة القرآن. وكل هذه الدراسات، علاوة على أنها لا تفي بحاجيات المجتمع العصري، فقد كانت تستند إلى التقليد والنقل وتلقين الحقائق المسلمة دون إعمال الفكر فيها. ومع الإبقاء على هذا النوع من التعليم محاباة لرجال الدين، كان لابد من إرساء تعليم عصري يكون أساسه العلوم العقلية ويعتمد على العقل والنقد على منوال البلدان المتقدمة، وقد بدأت التجربة في المدارس العسكرية قصد تكوين إطارات ناجعة في هذا الميدان الحساس. ثم شملت التعليم الابتدائي الثانوي. فأنشأ محمد علي باشا المدارس الابتدائية والثانوية على منوال الدول الأوروبية المتقدمة. كما أنشأ معاهد عليا لتكوين الأطباء و المهندسين والمختصين في فنون الإدارة والقانون وكذلك المترجمين لتعريب الكتب الإفرنجية ونقل العلوم والفنون والأفكار والآداب الغربية لترويجها بالبلاد المصرية. وقد وفرت الحكومة المصرية الطعام واللباس والمنح للتلاميذ والطلبة تشجيعا للتعليم. كما واصلت إلى جانب ذلك إرسال البعثات لأوروبا لدراسة مختلف العلوم والفنون وتكوين إطارات عليا تكون قادرة على تعويض الخبراء والأساتذة الأجانب وبالتالي على تحقيق الاكتفاء الذاتي الذي يعتبره محمد علي شرطا أساسيا لاستقلال البلاد وسيادتها.

وكان لتطور التعليم تأثير كبير في الثقافة بمصر التي تفتحت في عهد محمد علي باشا على الحضارات الأخرى وخصوصا على الحضارة الأوروبية الحديثة وذلك عن طريق تعريب الكتب العلمية والقانونية والأدبية، ونجمت عن هذا التفتح نهضة ثقافية وقع دعمها بتأسيس أول دار للطباعة سنة 1822 قامت بطبع العديد من الكتب العربية والتركية والفارسية وكذلك الأوروبية التي تم تعريبها. كما ظهرت سنة 1828 أول جريدة بمصر تحت عنوان "الوقائع المصرية" التي ساهمت في دعم النشاط الثقافي والفكري وكذلك التفتح على العالم الخارجي.

وبذلك فقد رجال الدين احتكارهم للتعليم والثقافة وبرزت نخبة من العلماء العصريين عملت على الخروج بمصر بصفة خاصة وبالعالم العربي بصفة عامة من الانكماش والانغلاق والركود الذين كانا عليها مدة قرون عديدة وعلى التفتح على الحضارات والأفكار الحديثة في جميع الميادين قصد تحقيق النهضة الشاملة(1).

(1) نفس المرجع، ص 23-24.

البعثات العلمية

وتمثل البعثات العلمية في تلك الفترة مصدرا مهما لاستجلاب العلوم والتقنيات الغربية إلى مصر.وكانت هذه البعثات مصدرا أساسيا لتأسيس النهضة التي اتبعت منهجا واقعيا في التعامل مع الفجوة الثقافية والعلمية التي ظهرت بين أوربا الناهضة والبلدان التابعة للخلافة العثمانية المتدهورة. وخطت النهضة خطوات ثابتة على طريق استحضار خبرات أجنبية لبناء اللبنة الأولى في التعليم والصناعة ثم إرسال بعثات لاكتساب المعارف والخبرات الكفيلة بإنشاء البنية الأساسية لمقومات النهضة.

بعثات علمية كبرى

قبل انطلاق البعثات العلمية الكبرى إلى الغرب، لم يكتف محمد على بتأسيس المدارس والمعاهد العلمية في مصر ليتلقى فيها المصريون العلوم التي تنهض بالمجتمع كله، بل فكّر في أهمية نقل معارف أوروبا وخبرة علمائها ومهندسيها ورجال الحرب والصناعات فيها بشكل مباشر من خلال وجودهم في مصر. وكان هدف البعثات الأولى تكوين كوادر من المعلمين المصريين في المدارس العليا، وتدريب قادة للجيش والبحرية، وتأهيل مهندسين قادرين على نشر العمران.

وبدأت أولى البعثات حوالي عام 1813، وكانت الوفود الأولى من الطلبة مكرسة لدراسة الفنون العسكرية وبناء السفن وتعلم الهندسة توجهت جميعها إلى المدن الإيطالية مثل روما وميلانو وليفورن وفلورنسا. وكان ضمن هؤلاء الطلبة نقولا مسابكي الذي تعلم الطباعة وتوجهت بعثات أخرى إلى فرنسا وإنجلترا لدراسة بناء السفن والملاحة ومناسيب الماء وصرفه إضافة إلى الميكانيكا.

بلغ عدد الطلاب الذين تضمنتهم هذه البعثات المبكرة 28 طالبا، وأشهرهم عثمان نور الدين الذي ذهب إلى فرنسا، وكان له شأن كبير في تنظيم البعثات الكبرى التالية وصار أميرالا للأسطول المصري.

وبدأت البعثات الكبرى من عام 1826، بإرسال 44 طالبا إلى فرنسا، لحقت بهم بعثة كبيرة أخرى من 70 طالبا عام 1844، اختارهم سليمان باشا الفرنساوي من بين تلاميذ المدارس

المصرية ولحق بهم غيرهم بعد ذلك. وأصبح عدد طلاب البعثات جديرا بإنشاء مدرسة مصرية في فرنسا، لتعليم الطلاب اللغة الفرنسية بما يناسب المدارس العليا الفرنسية، وإن كانت قد أُغلقت عام 1848 إلا أنه تم فتحها من جديد في عهد إسماعيل.

وبين عامي 1831 و1847 وصل عدد طلاب البعثات إلى 319 طالبا وبلغت تكاليف هذه البعثات 303360 جنيها وهو مبلغ ضئيل إذا ما قسناه بمدى النهضة التي أحدثها هؤلاء المبعوثون بعد عودتهم، حيث ساهموا جميعا في نهضة مصر العلمية والاقتصادية والحربية والسياسية والاجتماعية.

وجدير بالملاحظة أن محمد علي كان يهتم بأعضاء هذه البعثات بنفسه، حيث يتتبع أحوالهم ويكتب لهم الرسائل لتشجيعهم على التحصيل، من ذلك رسالة له في سبتمبر 1829 تستحق أن نورد هنا جملا منها: قدوة الأماثل الكرام الأفندية المقيمين في باريس لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم، ننهي إليكم أنه قد وصلتنا أخباركم الشهرية، والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم... فقياسا على قلة شغلكم في هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم، وهذا الأمر غمنا جدا... فإذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة وجئتم إلى مصر بعد قراءة بعض كتب فظننتم أنكم تعلمتم العلوم والفنون فإن ظنكم باطل... فإن أردتم أن تكتسبوا رضاءنا فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون كلمات من يأمل في نقل حضارة وليس مجرد الحصول على شهادات تحصيل معارف. ولا يفوتنا التأثير النفسي لمثل هذه الكلمات من حاكم مصر إلى طلاب مازالوا في بدايات حياتهم العملية. ويدل أيضا على الاهتمام بهؤلاء الطلاب المراكز المهمة التي شغلوها بعد عودتهم من البعثات.

وإن كانت البعثات قد ركّزت في البداية على العلوم والخبرات الكفيلة ببناء قوة عسكرية لضمان الاستقلال، فإنها تطورت بشكل تلقائي لتدعيم هذه القوة بالصناعات اللازمة سيان كانت عسكرية أو مدنية، فكانت النتيجة النهوض بكافة جوانب التطور التعليمي والثقافي والعلمي والتقني.

ركزت البعثة الأولى، التي وصل عدد طلابها إلى 44 طالبا وكان إمامها الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي، على الإدارة الملكية والحقوق والفنون الحربية والإدارة العسكرية والعلوم

السياسية والملاحة والفنون البحرية والهندسة الحربية والمدفعية والطب والجراحة والزراعة. ودرس بعض طلابها أيضا التاريخ الطبيعي والمعادن وهندسة الري والميكانيكا والطباعة والكيمياء.

واهتمت البعثة الثانية التي أتت بعدها بعامين بالهندسة والرياضة والطبيعيات، وتخصص بعض طلابها في الطبيعيات وآخرون في الفنون الحربية أو العلوم السياسية أو الطب أو الترجمة.

وبعد عام واحد من البعثة الثانية تغلبت الصبغة الصناعية على دراسات أفراد البعثة، مما يدل على رغبة محمد على في إنشاء صناعات مهمة في مصر. وشملت هذه البعثة عام 1829 ثمانية وخمسين طالبا تم إرسالهم إلى فرنسا والنمسا وإنجلترا. وتخصص معظم أفرادها في عدد من الصناعات الرئيسية، فمن صناعة الصباغة والنسيج والأجواخ وصناعة السفن والفنون البحرية وصب المدافع والقنابل والآلات الهندسية والساعات والأحذية، حتى صناعة الدهانات والآلات الجراحية.

وتخصصت البعثة الرابعة عام 1832 في الطب وكان عدد طلابها 12 طالبا من أوائل خريجي مدرسة الطب المصرية في أبي زعبل، تم اختيارهم لإتمام دراستهم في باريس لتعيينهم أساتذة في مدرسة الطب عند عودتهم، وساهموا إضافة إلى التدريس في ترجمة وتأليف الكتب الطبية والاضطلاع بالأعمال الصحية في البلاد.

وكانت البعثة الخامسة عام 1844 هي أكبر بعثة ترسل إلى فرنسا وهي آخر بعثة كبرى، وصل عدد طلابها إلى نحو 83 طالبا وأُطلق عليها "بعثة الأنجال" لأنها تضمنت بعض أنجال وأحفاد محمد علي. وتم اختيار أعضائها من نوابغ طلبة المدارس المصرية العالية وضمت أيضا بعض المعلمين والموظفين، مما يكشف سلامة منهج اختيار أعضاء البعثات والتخصصات التي توجهوا إلى دراستها، حيث لم تقتصر على طلاب العلم في مستوى التعليم العالي لإعدادهم لشغل مراكز مهمة في مجالات الإنتاج والخدمات المختلفة، لكنها فتحت الطريق أمام العاملين فعلا في هذه المجالات لربط خبراتهم بأحدث العلوم والإنجازات التقنية. وتخصصت هذه البعثة في العلوم الحربية والطب والطبيعيات، إضافة إلى علوم أخرى.

وتلا ذلك أربع بعثات أرسلت إحداها إلى النمسا في 1845، اهتمت بالكيمياء الصناعية وطب العيون، وأخرى سنة 1847، لتعلم الحقوق والمحاماة، وبعثة سنة 1847 إلى إنجلترا من 21 نجارا لإتقان بناء السفن، وبعثة أخيرة عام 1847 مكونة من 25 طالبا تم اختيارهم من نوابغ طلبة مدرسة المهندس خانة للتخصص في الميكانيكا ذهب أغلبهم إلى إنجلترا وبعضهم إلى فرنسا.

جنى ثمار البعثات العلمية

وبلغ عدد طلبة هذه البعثات 319 طالبا. وكان من نتائجها تأسيس مدارس للهندسة والطب والصيدلة والألسن والمعادن والفنون والصنائع والزراعة غير المدارس الحربية المختلفة، وإقامة منشآت الري والزراعة، ومنشآت صناعية أخرى مثل صناعات الغزل والنسيج، ومعامل سبك الحديد وألواح النحاس ومعامل السكر والمطابع، إضافة إلى ترسانات صناعة السفن.

ونظرة إلى وضع الاقتصاد الحرفي قبل هذه الفترة والتطور الملحوظ في الصناعة والزراعة والإنتاج الحربي، كافية للتدليل على التغير النوعي في بنية المجتمع والاقتصاد ومسار النهضة الشاملة التي شاركت البعثات العلمية والتقنية في تأسيسها.

ولا شك أن النهضة قامت على التوسع الكبير في إنشاء المدارس وإرسال البعثات العلمية إلى أوروبا، ويعتبر هذا المنحى تحديثا للبنية الأساسية في المجالات الحربية والاقتصادية. وبدأ العمل في مجال التعليم بتأسيس المدارس العليا وإيفاد البعثات، ثم الانتقال إلى التعليم الابتدائي والثانوي، مما أتاح تكوين طبقة من المتعلمين تعليما عاليا تتم الاستعانة بهم في أعمال العمران ونشر التعليم بين طبقات الشعب.

كان من ثمار البعثات أيضا إتباع المنهج العلمي في التعامل مع المشاكل الصحية، حيث تم إجراء تطعيم ضد الجدري كنوع من الحماية من هذا المرض، وأُقيم في الإسكندرية حجز صحي على السفن الواردة من البلاد الموبوءة، وتم تأليف المجلس الصحي للإشراف على

الشؤون الصحية في القطر كله، وتنظيم فرقة من الأطباء الوطنيين للرعاية الصحية وتوفير العلاج المجاني للطبقات الفقيرة.

وساعد على إمداد المدارس العليا والبعثات بطلاب حازوا على قسط من الثقافة يؤهلهم لتفهم دروس المدارس العليا في مصر وأوروبا، وجود التعليم في الأزهر الذي كان يمد البعثات بالطلبة النابغين.

وللتدليل على الجانب العملي في تفكير محمد علي، الذي أدرك المستوى الفعلي المنخفض للخبرات المحلية، أنه بدأ بتأسيس مدرسة الهندسة (المهندس خانة) في القلعة عام 1816، وكان أول طلابها من أهل البلد والمماليك يتعلمون قواعد الحساب والهندسة وعلم المقادير والقياسات، وتم إحضار آلات هندسية متنوعة لهم من إنجلترا. وكانت الدراسة مجانية ويتم صرف مرتبات شهرية وكساوي سنوية للطلبة. ولحقت بها في عام 1834 مدرسة هندسة في بولاق تولى نظارتها ووكالتها خريجان من خريجي البعثات.

وتم تأسيس مدرسة الطب عام 1827 تبعا لاقتراح من كلوت بك، وكان مقرها في البداية أبو زعبل لوجود المستشفى العسكري بها. واختارت الحكومة للمدرسة مائة تلميذ من طلبة الأزهر. وتولى إدارتها كلوت بك فاختار أساتذة أوروبيين معظمهم من الفرنسيين لتدريس علوم التشريح والجراحة والأمراض الباطنية والمواد الطبية وعلم الصحة والصيدلة والطب الشرعي والطبيعة والكيمياء والنبات. وفي عام 1837 بلغ عدد طلابها 140 طالبا و50 طالبا في مدرسة الصيدلة.

وتعددت المدارس في مصر في ذلك العصر مثل مدرسة الألسن، مدرسة المعادن، مدرسة الفنون والصنائع، مدرسة الزراعة، مدرسة الطب البيطري، إضافة إلى المدارس الحربية والبحرية. ومع تخرج نوابغ أعضاء البعثات وعودتهم إلى مصر تم إنشاء إدارة ديوان المدارس عام 1837 التي ترأسها مصطفي مختار أحد خريجي البعثة الأولى.

وتكشف التنمية المتوازية في عدد من المجالات التي لا ترتبط مباشرة بالفنون والصناعات الحربية، عن وعي بالمنهج العلمي الواقعي في التعامل مع تشابك المجالات الحربية

والاقتصادية والسياسية، فلا استقلال بدون اعتماد على النفس في فنون الري والصناعة والتعليم. وهذا يفسر الاهتمام البالغ بإنشاء البنية الأساسية في مجال الزراعة، مثل إعادة تشغيل الترع المطمورة وحفر أخرى جديدة في شتى أنحاء مصر، وإنشاء الجسور على شاطئ النيل من جبل السلسلة جنوبا حتى البحر الأبيض المتوسط شمالا لمنع فيضان المياه على ضفتي النيل، إضافة إلى إنشاء جسور أخرى على أفرع النيل. وتم إنشاء قناطر عديدة على الترع لضبط مستويات المياه تيسيرا للانتفاع بالري. وكانت أراضي الوجه البحري تروى بطريق الحياض كري الوجه القبلي فلا يُزرع فيها إلا المحاصيل الشتوية، فتم إنشاء القناطر الخيرية لضمان توفير المياه في معظم السنة. وعهد محمد علي بدراسة هذا المشروع قبل تنفيذه إلى جماعة من كبار المهندسين منهم لينان دي بلفون وبدأ التنفيذ في 1834، لكن مهندسا فرنسيا آخر هو جوميل أعد تصميما مختلفا وبدأ التنفيذ بمساعدة مهندسين مصريين تخرجا من البعثات العلمية. وتعتبر هذه القناطر التي تعمل في شمال القاهرة حتى الآن من القناطر الأولى الكبرى التي تقام على نهر واسع.

وكانت نتيجة الإصلاحات الزراعية واسعة النطاق تغيير عدد من الحاصلات، فبعد أن كانت أهم الحاصلات في مصر: القمح والشعير والفول والعدس والحمص والذرة والترمس والبرسيم وقصب السكر والقنب والكتان والخضر والفواكه، وقليل من القطن، تم التوسع بغرس شجر التوت لتربية دود القز (الحرير). وبعد أن كان القطن من أصناف رديئة تمت زراعة القطن طويل التيلة، تبعا لنصيحة جوميل الذي استقدمه محمد على لتنظيم مصانع النسيج. وأقبلت على طلب القطن المصري مصانع النسيج في فرنسا وإنجلترا، وأصبح أساس الثروة الزراعية في مصر.

وأعاد إسماعيل عهد البعثات العلمية إلى مدارس أوروبا ابتداء من عام 1863، وأنشأ مدرسة لأعضاء البعثة في باريس بدل المدرسة التي أنشأها محمد علي لهذا الغرض وأُغلقت في أواخر عهده، لكن المدرسة التي أنشأها إسماعيل أُغلقت بعد نشوب الحرب السبعينية.

كان لأفراد البعثات التي أرسلها إسماعيل إلى أوروبا أثرهم على المجتمع المصري بعد عودتهم، فقد تأثروا بالبيئة الأوروبية أكثر من المبعوثين الذين أرسلهم محمد علي، لأنهم كانوا

شبابا في نحو العشرين من العمر، بينما كانت بعثات محمد على أكبر سنا بكثير. وكانت أهم الدول التي استقبلت بعثات إسماعيل فرنسا وإنجلترا وإيطاليا. وازداد عدد أفراد البعثات ازديادا مطردا في السنوات الأولى من حكم إسماعيل، ثم أخذ العدد في النقصان بعد الارتباك المالي الذي حدث في السنوات الأخيرة من حكمه.

وكان ضمن ثمار البعثات العلمية والتحديث في عصر إسماعيل إنشاء عدد من الجمعيات العلمية مثل الجمعية الجغرافية الخديوية عام 1875 الذي كان أول رئيس لها العالم الألماني جورج شونفرت، وجمعية (المعارف المصرية) لتشجيع البحث العلمي، وتم أيضا إنشاء المتحف المصري. وظهرت الصحف العلمية والأدبية والحربية مثل مجلة (اليعسوب) الطبية عام 1865 ومجلة (روضة المدارس) عام 1870 لإحياء الآداب العربية ونشر المعارف الحديثة وترأسها رفاعة رافع الطهطاوي إمام البعثة الأولى في عصر محمد علي.

وتقدمت الطباعة في عصر إسماعيل حيث أصبحت مطبعة بولاق من أكبر المطابع.

واتسم عصر إسماعيل بالنهضة العلمية والأدبية بسبب انتشار التعليم في المدارس والمعاهد وظهور طائفة من العلماء والأدباء ممن تخرجوا في المدارس والبعثات، ونشاط حركة التأليف والترجمة والنشر. وظهرت طائفة من العلماء المؤلفين والمعربين فأنتجوا كتبا في الطب والرياضيات والتاريخ والفقه والتشريع. وتولي أرقى المناصب الحكومية متخرجون من المدارس والمعاهد والبعثات، فكان من ثمار النهضة الارتقاء في عدد من المجالات مثل التعليم والري والهندسة والإدارة والقضاء والصحة والجيش والأسطول.

ولم يفتقد إسماعيل أيضا أهدافا خاصة في عملية التطوير كما كان شأن محمد علي المالك الأوحد لمصر، فمع التطور الصناعي كان إسماعيل مهتما بتنمية ثروته الخاصة، فقد كان يملك وحده مصنعين للنسيج بالقرب من القاهرة و22 مصنعا للسكر تبلغ طاقتها الإنتاجية 150 ألف طن سكر سنويا، و4 مصانع للأسلحة ودارين لصناعة بناء السفن.

طلبة وعلوم

سنحاول من خلال هذا العنصر عرض ملخص للمقابلات التي أجريت مع بعض الطلبة الذين كانت لهم تجربة في الرحلة في طلب العلم، والذين بلغ عددهم عشرين طالبا كانوا من مناطق مختلفة من القطر الوطني، من الشرق نجد ولايات باتنة، قسنطينة، برج بوعريريج والواد، ومن الوسط نجد خاصة العاصمة، وكذا من الغرب نجد عين الدفلى، الشلف، وهران وغليزان، وهؤلاء الطلبة مازالوا في ديناميكية الرحلة أي يذهبون متى سمحت لهم الفرصة، ولابأس أن ننبه أن هناك أغلبية منهم يطلبون العلوم الشرعية من فقه وأصول الفقه وحديث وعقيدة، وتاريخ إسلامي، وقلة أخرى تطلب علوم كالمحاسبة وعلم النفس وعلم الاجتماع والأنتروبولوجيا، وهذه المقابلات كانت متفرقة في الزمان والمكان حسب إمكانية تواجد هؤلاء المبحوثين لأني كنت أتحين فرص العطل التي يكون هؤلاء الطلبة متواجدين فيها هنا في القطر الوطني، طبعا مع إجراء بعض الاتصالات مع الأشخاص الذين يعرفونهم.

فكرة الرحلة

في إطار النقاش الذي دار حول الرحلة وعواملها وأسبابها، كان هناك سؤال من بين الأسئلة التي كانت موجودة في دليل المقابلة هو عرض مبسط لمنابع وشروط وأسباب القيام بهذه الرحلة، فكانت إجابات الطلبة المبحوثين متقاربة سواء في مجال العلوم الشرعية التي كانت تمثل أغلبية لدى الطلبة، أو العلوم المدنية المذكورة سالفا، هو حب الاستزادة من العلم خاصة إذا كان البلد المقصود أوالمزار له تأطير وتكوين معترف به لدى المجتمع العلمي وعلى المستوى الدولي، ففكرة الرحلة مثلا نتجت عند طلبة الشريعة لإحساسهم بضعف مستوى الجامعة، وقناعتهم بأن العلم يأخذ من أفواه العلماء وليس من بطون الكتب إضافة إلى المحيط الذي كانوا يعيشون فيه، وهو محيط محافظ وهنا أقصد طلبة الشريعة، الآباء لهم رصيد علمي خاصة في الجانب الشرعي (كحفظ القرآن، وبعض الحديث)، أيضا تنافس هؤلاء الطلبة لنيل التزكية، فمثلا يقول بعضهم "إنك عندما تدرس الحديث عند الشيخ عبد المحسن العباد ليس كما تدرسه عند أستاذ مادة علوم الحديث في الجامعة"(1).

ولقد كانت لي فرصة أني أقمت بحي "ETO" الجامعي مدة حوالي سبع سنوات وكنت ألتقي مع طلبة الشريعة الإسلامية لأن معظمهم يقطنون هذا الحي، فبالموازاة مع دراستهم

(1) طالب جامعي 30 سنة تخصص شريعة إسلامية "أصول فقه".

الجامعية كانوا يقومون بحفظ بعض المتون في مختلف الفنون ويقومون بشرحها سواء بشراء الكتب أو سماع أشرطة العلماء الذين قاموا بشرح هذه المتون وكانوا على اتصال بالطلبة الذين قاموا بالرحلة إلى الحجاز ويأخذون عنهم أخبار العلماء والمتون التي هم بصدد شرحها، فيتهيئون هنا بحفظ هذه المتون وذلك قصد ربح الوقت عند الذهاب هناك من أجل سماع الشروحات والتوضيحات فقط، والانتقال إلى أشياء أخرى. وهناك نظرة أخرى لنقل أنها إبستيمولوجية تدفعهم لمواصلة الدراسة خارج الوطن وهي أن هنا في الجزائر والجامعة الجزائرية موجود العقيدة الأشعرية المخالفة لعقيدة أهل السنة والجماعة لذا يذهبون لتحصيل مبادئ هذه العقيدة ودراسة أشهر متونها (الحموية، التدمرية، الطحاوية وكتاب التوحيد).

أما الفقه الموجود هنا فهو الفقه المالكي المتعصب لأقوال الرجال وليس قائما على الدليل، ونحن هناك في الحجاز نطلب العلم والفقه المبني على الدليل ومن بين الشروحات (زاد المستقنع، بلوغ المرام وعمدة الأحكام)، وكذلك طلب الحديث وعلمه خاصة مصطلح الحديث ومعرفة الرجال (منهج التجريح والتعديل في الحديث)، وذلك عملا بالقول المأثور أن كل محدث فقيه وليس كل فقيه محدث.

إذن فالدوافع متعددة علمية واجتماعية ونفعية إن صح القول، فعندما يعود الطالب إلى أرض الوطن يقال أتعرف الطالب الفلاني، فقد تتلمذ على يد الشيخ الفلاني، وبالتالي يصبح له وزن وتزكية ويصبح هو بدوره يقيم المحاضرات ويتلقى الدعوات من مختلف الولايات.

أما طلبة العلوم المدنية، فهاجسهم هو رفع المستوى وذلك لتذمرهم من تقهقر المستوى الذي تقدمه الجامعة الجزائرية اليوم، وبطبيعة الحال قصد كسب سلطة معرفية، فعندما يدرس في فرنسا، فهذا يعني أن له وزنه العلمي والمعرفي نتيجة السمعة التي يحظى بها هذا البلد في مجال العلم والمعرفة، كالمحاسبة أو علم الاجتماع، فهو معترف بمستواه دوليا وهذا سيفتح بطبيعة الحال أبواب كثيرة ومتعددة أمام حامل الشهادة من هذا البلد.

المسار الدراسي

لقد اكتشفت من خلال المقابلات التي أجريتها نوعين من الطرق لتحصيل العلم وخاصة العلوم الشرعية، وبالمناسبة أن معظم الطلبة متحصلين على شهادة الليسانس هنا في الجزائر، وكما قلت النوع الأول هو النظامي أي أن الطلبة يذهبون في موسم العمرة أو الحج

ثم يقصدون الجامعات المتواجدة في الحجاز خاصة في المدينة المنورة، مثل جامعة الملك سعود، ويقومون بإجراء مقابلة قصد الانضمام إلى صفوف الجامعة، في تخصص معين كأصول الفقه أو الحديث أو العقيدة أو علوم القرآن، كما يقول أحد المبحوثين "أنا كنت محظوظا بحمد الله لأن القبول في الجامعة في المدينة المنورة صعب جدا، والحمد لله وفقت وتم قبولي، وأخذت تخصص علوم القرآن"(1)، وتتم الدراسة لأربع سنوات أخرى.

أما النوع الثاني فهو نظام الحلقات، فالطلبة يذهبون من الجزائر ويقومون بالطواف هناك حول حلقات العلماء الذين يكونون في صدد إلقاء محاضرات ودروس عامة للمعتمرين يقول أحدهم "نوع العلوم المطلوبة كانت الحديث، اللغة النحو بالخصوص، أحكام التجويد والعقيدة وكذلك الفقه، وفي الوقت الذي ذهبنا فيه كان الشيخ عبد المحسن العباد يدرس سنن الترمذي، في آخر الكتاب، وكذلك متن الورقات في مصطلح الحديث، والشيخ عبد الرزاق البدر يشرح صحيح الأذكار بعد العصر، والشيخ إبراهيم الرحيلي يشرح رياض الصالحين، سليمان الرحيلي بعد العصر يشرح مناسك الحج، وفي اللغة كان هناك الشيخ عبد الرحمن بن عوف الكوني الشنقيطي متخصص في النحو، فكان يجعل لكل طالب عشر دقائق في النحو يسأل ثم يجيبه ويشرح له، وهكذا نطوف بالعلماء والحلق"(2).

أما طريقة الطلب فكانت تختلف من طالب لآخر، فهناك طريقة "طلب العلم بحسب كل فن، والتحضير، إذا كان في تجويد القرآن نحضر ونحفظ متن الجزرية والشيخ يشرح لك بعض الأمور ثم يبقى مجهودك الخاص في التلخيص والتدوين، في الحديث تحفظ إحدى عشر حديث في اليوم، تحضر وتحفظ الأحاديث والمتن والرواة وتوثيقهم إلى ذلك، وفي النحو على طريقة الشناقطة تسجل ما يشرحه الشيخ ولا تسأل حتى لا تمر دقائقك بدون فائدة، والسؤال يتم الاحتفاظ به بعد الصلاة، وفي الغرفة ندون ونراجع ونحفظ ما دوناه ونلخصه، أما دروس الموسم كثيرة ندونها وننتظر حتى ينتهي الموسم ونرتبها"(3).

فهذه طريقة طلب عدة علوم وفنون في وقت واحد بالانتقال من حلقة إلى أخرى وهناك طريقة أخرى هي "أقوم بحفظ المتن في العقيدة أو الفقه مثلا حتى أتمه ثم أحضر حلقة

(1) طالب 28 سنة تخصص شريعة إسلامية "فقه وأصوله".
(2) طالب جامعي 26 سنة تخصص شريعة إسلامية "فقه وأصوله".
(3) طالب جامعي 27 سنة تخصص شريعة إسلامية "فقه وأصوله".

الشيخ الذي يكون يشرح في ذلك المتن حتى أتمها وأراجعها وألخصها ثم أمر إلى شيء آخر وهكذا دواليك. واتبع هذا المنهج قصد التأصيل الجيد وحتى لا تختلط علي المتون، ويطلق عليها طريقة الشناقطة"(1)، هذا فيما يخص طلبة العلم الشرعي، أما العلوم المدنية فمعظمهم يلتحقون بالجامعات مباشرة لإتمام دراساتهم العليا كما يقول أحد المبحوثين "أنا أطلب الآن شهادة الماستر في فرنسا(master recherche en France)، والتخصص دائما علم الاجتماع في تخصص اسمه (langage, culture et société)"(2). يقول آخر "والأمر الذي ذهبت من أجله إلى الخارج وبدون منحة وبالوسائل والإمكانيات الخاصة قصد الحصول على شهادات عليا، لأن هناك مستوى ولكن بغية الحصول على شهادات عليا ودخول ميدان البحث (ماستر، دكتوراه)"(3).

علاقة الطالب بالشيخ

في إطار التتلمذ يكون الطالب علاقة جيدة وطيبة مع الشيخ، ولكن التعامل مع المشايخ والعلماء يحتاج إلى أدب خاص يقول "العلماء يحتاجون إلى أدب خاص، حتى في صياغة السؤال، والتعامل، والمشي معه، فهناك العالم من يحبذ أن يمشي معه الطلبة وآخرون لا، يخشون على أنفسهم الفتنة"(4). والأدب مع العالم يكون حتى في وضعية الجلوس، وهذا مأخوذ من حديث جبريل الطويل الذي رواه مسلم عن عمر بن الخطاب، قال"بينما نحن جلوس عند رسول الله إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخديه، ثم قال يا محمد أخبرني عن الإسلام ..." الحديث. وهكذا جلس تأدبا مع العالم وبدأ بسؤاله حتى يتعلم الصحابة الذين كانوا متواجدين مع النبي ويتأسوا بهذا الأدب مستقبلا، ومن الأدب مع العالم أيضا أن يسأله عن رأيه ولا يجادله خاصة إذا كانت المسائل خلافية بين العلماء.

المال وصعوبة الإقامة

استشفيت من خلال المقابلات التي قمت بها، أن مشكلة المال والموارد المادية كانت تشكل

(1) طالب جامعي 24 سنة تخصص شريعة إسلامية "فقه وأصوله".
(2) طالبة جامعية 27 سنة تخصص علم الاجتماع.
(3) دكتور 54 سنة تخصص محاسبة.
(4) طالب علم 55 سنة تخصص شريعة إسلامية.

نقطة اتفاق بين الطلبة، فقد كانت تمثل العقبة الكبرى لمواصلة الطلب فقد اضطر الطلبة إلى الاقتراض سواء من معارفهم "اقترضت 60.000دج، وكان في جيبي 9000دج، وكان طعامنا الماء، فالكراء يأخذ 100 ريال أي ما يعادل 2000دج، ولا نأكل أكل فاخر (200-300دج)"(1). والبعض الآخر له عمل لكن تكاليف السفر والذهاب والإياب وكلفة التسجيلات بالمعاهد جعلته يفكر في القرض البنكي "والله يا أخي أصبحت أفكر في القرض البنكي فقد استطعت توفير مبلغ 200.000دج من أصل 500.000دج وأنا أحتاج الآن إلى 300.000دج لإتمام الدراسة"(2)، والبعض الآخر اضطر إلى "اضطررت إلى بيع عقدي وسواري وحلق أذني وخاتمي للتكفل بمصاريف السفر وضبط أموري الإدارية"(3). وهناك بعض الطلبة من كان يدعمه والده ويقتطع له نصيب من المال ليمده به كل شهر "أنا أدرس بسوريا علوم شرعية ووالدي يتكفل بكل المصاريف، علما أني لا أملك عمل وهو من يشجعني للدراسة خاصة أنه يحفظ كتاب الله ويحبذ العلوم الشرعية"(4).

وما تحصلت عليه من الطلبة المبحوثين حول الفارق الحاصل في المسيرة التي قاموا بها في طلب العلم في البلدان المختلفة (لبنان، سوريا، السعودية وفرنسا) وبين الواقع الجزائري في مجال علومهم طبعا، فقالوا أن البلدان التي زاروها حصلوا منها ودرسوا طبائع الناس، والذهنيات المختلفة، وتوسع المدارك وتغيير طبيعة التفكير، وتعظيم العلم "الحجاز لهم تعظيم للعلم ويعظمون طلبة العلم ويعتبرونهم من عابري السبيل فيعطونهم من أموالهم"(5). فإنك تجد أساتذة ودكاترة ذووا فكر ومستوى عالي وتواضع.

---

(1) طالب جامعي 26 سنة تخصص شريعة إسلامية.
(2) طالب جامعي 26 سنة تخصص علوم سياسية.
(3) طالبة جامعية 27 سنة تخصص علم الاجتماع.
(4) طالب 31 سنة تخصص شريعة إسلامية.
(5) طالب جامعي 35 سنة تخصص شريعة إسلامية.

خاتمة عامة

خاتمة عامة

يتميز العمل الإنساني بالسهو ويلحقه دائما النقص، وكذلك الفكر فمن خصائصه أنه يقبل النقد والنقاش، وإذا اعتبرنا أن ما ينتجه الفكر الإنساني هو الحقيقة المطلقة، فبذلك نكون قد أنزلناه منزلة النصوص المقدسة.

لذا أقر في آخر مطاف هذا العمل أني لم ألتمس كل حقائق الموضوع الذي يحتاج إلى إلمامة جيدة بالتاريخ السياسي والاجتماعي للمجتمع المدروس، وأعني به المجتمع العباسي، لكني لا أخفي أني اكتشفت أمورا حقيقة كنت أجهلها حول هذا العصر، فقد كان عندي تصور مجمل وصورة ضبابية حول هذه الفترة، ولنقل عقيدة نوستالجية بعيدة نوعا ما عن التحليل العلمي وخاصة الاجتماعي الانتروبولوجي، لكن الأدوات المنهجية المكتسبة من خلال الدراسة الجامعية جعلتني أصحح بعض الأمور وأضع النقاط على الحروف.

فالنتيجة المهمة التي خرجت بها هي أننا نملك تراث علمي وتجربة نموذجية يحتدا بها ويستلهم منها لكن تحتاج إلى دراسة منهجية وموضوعية، بعيدة عن روح التمجيد الزائف والمعوق لروح الإبداع، مستفيدة من الموروث الثقافي بصورة عقلانية منهجية، مبتعدة عن الصراعات الثنائية بين أفكار متعصبة إما لإفراط أو تفريط، وهنا واجبنا أن ندعوا إلى الوسطية في التعامل مع تاريخنا وتراثنا، خاصة العلمي.

أما الشيء الآخر البالغ الأهمية هو تلك العلاقة المميزة بين العلم والسياسة في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، فجل الثورات العلمية كانت وليدة إرادات سياسية، أي أن السياسي هو الذي يسير العلم، أي العالم خاضع للحاكم أو السلطان، ولا تجري هذه التطورات بصورة طبيعية، استجابة لظروف وشروط اجتماعية موضوعية، لذا أود أن أذكر بالتساؤل الذي طرحته عند بداية هذا العمل، فيما إذا كانت الرحلة في طلب العلم استجابة لضرورة اجتماعية ملحة، وهنا أريد أن أقيم مفارقة، هي أنه حقيقة العلم والمعرفة كانت تمثل حركة اجتماعية لكنها كانت وليدة خلفية دينية، لذا نجد الصراع الدائم وجل الإنتاج المعرفي خاصة في العلوم الإنسانية دخل في تيار هذا الصراع سواء كان عقدي أو أصولي أو منهجي، بمعنى أن الدين كان له تجدر في الحياة الاجتماعية العربية، بحيث كان النتاج المعرفي الديني وتفرعاته أكبر بكثير من العلوم المدنية وهذا مفهوم بطبيعة الحال بالنسبة لمجتمع جديد تكون

بفضل عقيدة دينية ففي البدايات الأولى سيبقى رهين هذا المنطق الديني، لكن فيما بعد توسع النطاق ليشمل العلوم المدنية خاصة العقلية منها (الرياضيات، الفلك، الطب ...الخ).

وسيبقى المجتمع العربي الإسلامي والحال هذه حتى عصر النهضة، والعصر الحديث والفترة المعاصرة، في ظل تنامي مصطلح مجتمعات المعرفة، ويطرح التساؤل التالي:

ما هو محل إعراب الدول العربية من التطورات التي تشهدها المجتمعات العالمية؟ وما هو حال المعرفة في هذه المجتمعات أي العربية؟

ولهذا تنبه معظم المفكرين العرب بضرورة طرح هذا التساؤل ومحاولة إيجاد تفسيرات منطقية، ووضع المجتمعات العربية في الطريق الصحيح وإظهار الصورة الحقيقية للتحديات التي تواجه المجتمعات العربية بحكوماتها وشعوبها ومؤسساتها، بحيث أصبح من الحري بهذه المجتمعات من تدارك الفجوة العميقة التي تفصلها عن المجتمعات الغربية، بحيث أصبحت هذه المجتمعات تمر إلى نوع جديد ونمط مغاير للنمط الصناعي، فقد كنا نسمع منذ عقود من الزمن بمصطلح المجتمعات الصناعية، لكن اليوم ظهر مصطلح جديد إلى السطح وهو مجتمعات المعرفة.

أي المجتمعات التي تتخذ من المعرفة كعملية أساسية للسيطرة، بمعنى تنتج وتستهلك وتصدر المعرفة، واقتصادها بدل من أن ينعت بالاقتصاد الرأسمالي يصبح يطلق عليه اقتصاد المعرفة، وهي مجتمعات حولت استثماراتها من المادة إلى الإنسان باعتباره مادة أولية غير قابلة للنفاد ويمكن أن تخضع لعملية إعادة الإنتاج.

فالمجتمعات العربية والحال هذه أصبحت تلاقي تحديات كبرى وحاسمة من أجل التغير، واللحاق بالركب والحفاظ على الأقل على الفارق الزمني الحاصل مع المجتمعات الغربية، وهذه الصورة تعطينا أو تنبهنا بأنه أصبح هناك تقسيم جديد عوض التقسيم القديم بين مجتمعات صناعية متطورة، ومجتمعات نامية أو متخلفة أو كما يقال سائرة في طريق النمو، إلى مجتمعات مالكة للمعرفة وأخرى فاقدة لها وتضطر إلى استهلاكها دون إنتاجها وبذل الثروات من أجل الحصول عليها، وهذا التقسيم المعنوي يتجسد في في تقسيم آخر هو جغرافي بين شمال مركز العلم والتكنولوجيا، وجنوب مركز وسوق صرف منتجات هذه الميادين.

وفي الأخير أريد الرجوع إلى الموضوع (الرحلة في طلب العلم)، وأقول أني حاولت البحث عن هذا الموضوع في التجارب الفردية، لكن هذه الظاهرة أصبحت أكثر تنظيم، واحتضنتها

مؤسسات رسمية هي جديرة بالدراسة والإلمام بأسلوب عملها ونشاطها في هذا المجال.

قائمة المراجع

المصادر

1- ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، الطبعة الأولى .

2- ابن دريد، **جمهرة اللغة**، قرص المكتبة الشاملة .

3- ابن سيده، **المحكم والمحيط الأعظم**، قرص المكتبة الشاملة .

4- الأزهري، **تهذيب اللغة**، الجزء الثاني، قرص المكتبة الشاملة .

5- الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، قرص المكتبة الشاملة .

6- الجوهري، **الصحاح في اللغة**، قرص المكتبة الشاملة .

7- زين الدين الرازي، **مختار الصحاح**، قرص المكتبة الشاملة .

8- شاهر ذيب أبو شريخ، **موسوعة عباقرة الإسلام**، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن2004 .

9- شمس الدين الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الحادية عشر2001 .

10- عاطف محمد، **سلسلة أشهر العلماء في التاريخ**، دار اللطائف للنشر والتوزيع، القاهرة 2003 .

11- محمد ألتونجي، **مشاهير العالم(الموسوعة الثقافية العامة)**، دار الجيل، بيروت 1999 .

12- محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، **تاج العروس من جواهر القاموس**، قرص المكتبة الشاملة .

13- مسعود الخوند، **الموسوعة التاريخية الجغرافية**، الشركة العالمية للموسوعات، لبنان، الطبعة الثالثة 2005 .

14- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، **موسوعة العلماء والأدباء العرب والمسلمين**، دار الجيل، بيروت 2005 .

15- **الموسوعة العربية العالمية**، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثانية 1999 .

16- قرص المكتبة الشاملة، **أساس البلاغة** .

17- قرص مكتبة الشاملة، **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير** .

المراجع

1- إبراهيم حركات، **النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط**، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء 1996 .

2- أحمد أمين، **ضحى الإسلام**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1964 .

3- أحمد سعدون، **أدب الرحلات**، دار الشرق الجديد، بيروت، الطبعة الأولى 1961 .

4- أحمد شلبي، **التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، الطبعة الرابعة 1970 .

5- الخطيب البغدادي، **تقييد العلم**، موقع الوراق .

6- الخطيب البغدادي، **الرحلة في طلب الحديث**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى1975 .

7- السيد عبد العزيز سالم، **دراسات في تاريخ العرب (العصر العباسي الأول)**، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية 1995 .

8- المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، موفم للنشر، الجزائر1990 .

9- المهندس أسامة حوحو، **مآثر العلماء**، مؤسسة بحسون للنشر والتوزيع، بيروت 1994 .

10- توفيق الطويل، **العرب والعلم**، دار النهضة العربية، القاهرة 1968 .

11- جلال الدين السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، موقع الوراق .

12- جورج طرابيشي، **إشكاليات العقل العربي**، دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى 1998 .

13- ديمتري غوتاس، **الفكر اليوناني والثقافة العربية**، ترجمة نقولا زيادة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 2003 .

14- سامي زبيدة، **انتروبولوجيات الإسلام**، دار الساقي، بيروت،لبنان، الطبعة الأولى 1997 .

15- سليمان الخطيب، **أسس مفهوم الحضارة في الإسلام**، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، الطبعة الأولى 1986 .

16- شارل بلا، **تاريخ اللغة والآداب العربية**، تعريب رقيق بن وناس وصالح حيزم والطيب العشاش، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1997 .

17- شاكر مصطفى، **التاريخ العربي والمؤرخون**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان،الطبعة الثانية1980

18- عبد الجبار الشريف، **الرحلة الأندلسية**، الدار التونسية للنشر، تونس 1984 .

19- عبد الرحمن بن خلدون، **المقدمة**، دار الفجر للتراث، القاهرة 2004 .

20- عبد الله العروي، **ثقافتنا في ضوء التاريخ**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب الطبعة السادسة2002 .

21- عبد المجيد بوقربة، **الحداثة والتراث**، دار الطليعة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1993 .

22- علي إبراهيم حسن، **التاريخ الإسلامي العام**، مكتبة النهضة المصرية،القاهرة 1972 .
23- علي المحجوبي، **النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر**، سراس للنشر، تونس 1999 .
24- علي عبد الرازق، **الإسلام وأصول الحكم**، دار مكتبة الحياة، بيروت 1966 .
25- ضيف الله محمد الأخضر، **محاضرات في النهضة العربية الحديثة**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1981 .
26- محمد صادق العفيفي، **تطور الفكر العلمي عند المسلمين**، مكتبة الخانجي، القاهرة 1977 .
27- محمد عابد الجابري، **تكوين العقل العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1998 .
28- محمد عبد الرحمن مرحبا، **أصالة الفكر العربي**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، الطبعة الأولى 1983 .
29- محمد محمد أبو زهو، **الحديث والمحدثون**، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان 1984 .
30- نبيلة حسن محمد، **في تاريخ الدولة العباسية**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 2003 .
31- نقولا زيادة، **الجغرافية والرحلات عند العرب**، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى 1980
32- هدى بوفرحات، **قصة وتاريخ الحضارات العربية بين الأمس واليوم**،édito creps ،جزء 1-2 بدون تاريخ .
33- يحي وهيب الجبوري، **الكتاب في الحضارة الإسلامية**، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998 .

المراجع باللغة الفرنسية

1- Touraine Alain, **Pour la sociologie**, Le Seuil, Paris 1974 .
2- Braudel Fernand, **Grammaire des civilisations**, Flammarion, Paris 1998 .
3- Braudel Fernand, **Civilisation matérielle**, **économie et capitalisme**, Tomes 1-2-3, Armand Colin, Paris 1979.
4- Bouamrane, Chikh/ Luis, Gardet, **Panorama de la pensée islamique**, Sindbad, deuxième édition, Paris1984 .
5- Touati Houari, **Islam et voyage au moyen âge**, Le Seuil, Paris 2000 .
6- Seyyed Hossein Nasr, **Science et savoir en islam**, Sindbad, Paris 1979 .
7- Vinck Dominique, **Sociologie des sciences**, Armand Colin, Paris1995 .

المجلات

1- جون جوليفييه، **انتشار الفكر الفلسفي**، الإسلام الفلسفة والعلوم، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، باريس 1983 .

2- سالم يفوت، **مكانة العلم في الثقافة العربية**، ثقافات، بدون تاريخ أو دار نشر .

3- وسيلة بلعيد بن حمده،**الرحلة في طلب العلم**،"سرتا"،العدد 03،1980 مطبعة البعث قسنطينة،الجزائر.